تزكية النفوس

وتربيتها

كما يقرره علماء السلف

ابن رجب الحنبلي ابن القيِّم أبي حامد الغزالي

جمع وترتيب

الدكتور احمد فريد

تحقيق

ماجد بن ابي الليل



بيروت - لبنان

الطبعــة الأولى
١٤٠٥ هجـرية ١٩٨٥ ميلادية


تزكية النفوس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

أن الحمدُ لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله مِن شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ؛

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا »

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

أما بعد . .

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهُدى هُدى

محمد ﷺ ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعه ، وكل بدعة ضلاله ، وكل ضلالة في النار .

إنه لما اطّلعنا على كتاب « دقائق الأخبار » ، وجدناه خير كتاب للمسلم : الصغير ، والكبير ، الذكر ، والأنثى ، به يستطيع أن يهذب نفسه ، ويزكيها ، ويخليها عن الرذائل ، ويحليها بالفضائل ؛ وذلك لسهولة تناوله ، ناهيك عن عذوبة اسلوبه ، وجمال عرضه ؛ فحفظ الله مؤلفه . فإن هذا النوع من العلوم مما اشتدت إليه حاجة المتفهم ، بل وكل مدرس ومعلم .

فلا تُحَقِّرَن صغر حجمه ، فالمؤلفات تتفاضل بالزهر والثمر لا بالهَذَر ، وبالمُلَح لا بالكِبَر ، وبجُموم اللطائف لا بتكثير الصحائف ، وبفخامة الأسرار لا بضخامة الأسفار ، وقد أحسن المؤلِّف (حفظه الله) ـ جمعه . واعلم أن مؤلَف الإنسانِ على فضله أو نقصه عنوان ، ولكن ليس هو بالمتحاش عن الخلل ، ولا بالمعصوم عن الزلل ؛ فوجدنا في الكتاب أخطاءً في بعض الآيات ـ لعلها من الناسخ ـ وكذلك في عزوه الأحاديث إلى مصادرها . ولعله في ذلك لا عتب عليه ؛ لأنه لِكلام الأئمة ناقل ، ولابد أن يعذره كل عاقل ، وأبى الله أن يجعل الكمال إلّا لكتابه ، ولذلك كله أقدمنا على تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب مع عزو كل حديث لأصله من الأصول السبعة وغيرهم ، مع تصحيح الآيات من المصحف والتعليق على كلمة مشكلة ، أو لفظة مغلقة ، يوضح عبارته ويظهر ملتبسه ويبين مشكله متى تيسر لنا ذلك ونحن في ذلك لا ندعي العصمة ـ حاشا وكلا ـ ولكن لم نألُ جهداً في تحقيق هذا السِفْر الطيب ، واخراجه في أجمل ثوب وأدق أسلوب .

وقد آثرنا عزو الحديث إلى مكانه من كتب السنة المشروحة حتى يتيسر للقارىء الرجوع لشرح الحديث ، لتكتمل الفائدة مع الاقتصار على

مصدرٍ أو اثنين أو نحو ذلك إلا في بعض المواضع ؛ لحاجة اقتضت ذلك . مع بيان درجة الحديث من الصحة أو الحسن أو الضعف . وصححنا الخطأ الواقع في العزو ، وكذلك الخطأ الواقع في نسبة الحديث مرفوعا وموقوفا وتعقبنا بعض الاصطلاحات الواردة في الكتاب مثل كلمة « صح عن فلان » وليس بصحيح .

ووضعنا قبل الحديث الصحيح كلمة « صحيح » وكذلك الجيد لأن الجودة يعبر عنها بالصحة وقبل الحديث الحسن كلمة « حسن » . وقبل الحديث الضعيف كلمة ضعيف وإن كان منكراً أو لا أصل له .

وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما تركنا كلمة « صحيح » لإن اخرج البخاري أو مسلم للحديث في صحيحيهما يكفي للحكم بصحته أيما كفاية .

وإذا كان الحديث عند البخاري ومسلم أكتفيا بعزوه إليهما - أو أحدهما - وإن اخرجه غيرهما .

(١) آثرنا عزو الحديث إلى مكانه من كتب الستة المشروحة ؛ حتى يتيسر للقارىء الرجوع لشرح الحديث ؛ لتكتمل الفائدة مع الاقتصار على مصدر أو اثنين ، أو نحو ذلك إلا في بعض المواضع ، لحاجة اقتضت ذلك . مع بيان درجة الحديث من الصحة أو الحسن أو الضعف .

(٢) تصحيح الخطأ الواقع في العزو ، مثل ما جاء :

(ص ١٩) حديث « **أمسك عليك لسانك** » عزاه المؤلف للبخاري ومسلم وليس هو عندهما ، ولا عند أحدهما .

(٣) تصحيح الخطأ الواقع في نسبة الحديث مرفوعا وموقوفا ، مثل ما جاء :

(ص ٣٦) حديث « **طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيرا** »

نسبة لعائشة موقوفا عليها وليس كذلك ، بل هـو مرفـوع من حديث عـائشـة وعبـد الله بن بسـر ومـوقـوف عـلى أبي الـدرداء (رضي الله عنه) .

(٤) التعقيب على بعض الإصطلاحات مثل ما جاء :
(ص ٣٣) حـديث « **من سـره أن يحب الله ورسـولـه فليقـرأ في المصحف** » صدره بقوله « وقد صح » وليس بصحيح ، بل هو منكر أو باطل .

(٥) لم نهتم بتخريج الآثار الموقوفة بل المرفوعة ، وإن كان قد وقع لنا ذلك في المواضع :
الأول مـا جاء : (ص ٥٩) « **حاسبوا أنفسكم** » موقوف على عمر عند الترمذي
الثاني ما جاء : (ص ١٠٨) « **إني لأحتسب نومتي** » موقوف على معاذ عند مسلم
الثالث ما جاء : (ص ١٨) « **من كثر كلامه كثر سقطه** » موقوف على عمر عند أبي نعيم .

(٦) وضعنا قبل الحديث الصحيح كلمة « صحيح » ، وكذلك الجيد ؛ لأن الجودة يعبر عنها بالصحة وقبل الحديث الحسن كلمة « حسن » ، وكلمة « ضعيف » قبل الحديث الضعيف وإن كان منكراً أو لا أصل له .
وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما تركنا كلمة « صحيح » لأن إخـراج البخاري ومسلم للحـديث في صحيحيهـما يكفي للحكم بصحته أيما كفاية .

(٧) إذا كان الحديث عند البخاري ومسلم اكتفيا بعزوه إليهما ـ أو أحدهما ـ وإن أخرجه غيرهما .

فيا أيها القارىء لا يملنك احتقار محققيه على التعسف ، ولا حظُّ نفسِك على أن يكون لك عن الحق تخلف .

فإذا عثرت منه على هفوة أو هَفَوات ، أو صدرت فيه مِنّا كبوة أو كبوات ؛ فإنما نحن كالذي تفرد في سلوك السبيل ؛ فلا يأمن مِن أن يناله أمر « وبيل » ، ومن توحّد بالذهاب في الشعاب والقفار ؛ فلا يبعد أن تلقاه الأهوال والأخطار ، ولا يسلم من الخطأ إلّا من جُعل التوفيق دليلهُ في مفترقات السبل ، وهُم الأنبياءُ والرسل .

ولا نبرىء أنفسنا من خلل ولا ريب ، ولا نبيعه بشرط البراءة من كل عيب ، بل نعترف بكمال القصور ، ونسأل الله العفو عما جرى به القلم بهذه السطور .

وكيف لا ؟! وقد قالوا :

« الإنسان في فسحة من عقله وفي سلامة من أفواه جنسه ما لم يضع كتابا أو لم يقل شعرا » .

وقالوا :

« من صنف كتابا فقد استشرف للمدح والذم ؛ فإن أحسن فقد استهدف من الحسد والغيبة ، وإن أساء فقد تعرض للقذف والشتم » .

ولا يخفى عليك أيها الكريم ، أن التعقب على الكتب سهل بالنسبة إلى تأليفها ، وترصيفها ، ووضعها كما يُشاهَد في الأبنية القديمة ، والهياكل العظيمة ، حيث يعترض على بانيها من عرى أي فنه عن القوى والقدر ، بحيث لا يقدر على وضع حجر على حجر .

وقد كتب البَيْساني إلى الأصبهاني معتذراً عن كلام استدركه عليه فقال :

إنه وقع لي شيء ولا أدري أوقع لك أم لا ؟ وها أنا أخبرك :

عمرو

« إني رأيت أنه : لا يكتب إنسان كتابا في يوم إلا قال في غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زِيدَ لكان يُستحسن ، ولو قُدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل .

وهـذا من أعظم العبـر ، وهو دليـل على استيـلاء النقص عـلى جملة البشر » .

وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيـل

ماجد بن أبي الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستعينه ، ونستغفـره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ؛ ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ـ صلى اللهم عليه ، وعلى آلـه ، وصحبه ، وسلّم ـ .

أما بعـــد :

لما كان من المهمات ـ التي بُعث بها نبي هذه الأمة محمد ﷺ ـ تزكيـة النفس ؛ كما قال عز وجلّ[1] ممتناً ببعثه ﷺ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

كان على من يرجو الله واليوم الآخر ؛ الإهتمام بتزكية نفسه خاصته ، وقد علّق الله عز وجلّ فلاح العبد بتزكية نفسه ؛ وذلك بعد إحدى عشر قسماً

---

(١) سورة الجمعة آية (٢).

متوالياً ، ولا يوجد في القرآن بأكمله أقسام متوالية على هذا النسق فقال[٢] عز وجلّ :

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَـٰهَا . وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَـٰهَا . وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّـٰهَا . وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَـٰهَا . وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَـٰهَا . وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَـٰهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾

والتزكية معناها التطهر ، ومنها سميت صدقة المال بالزكـاة ؛ لأن بها يطهر المال بإخراج حق الله فيه .

ولما تعذر الإنتفاع بكتب الرقائق المختلفة التي صنفها القدماء[١] لعدة أمور منها : أنّ أغلبها مجلدات ضخمة ، يصعب على كل مسلم الحصول عليها ، وكذلك : كثرة الأخبار الضعيفة ، والموضوعة ، عمدنا ـ بحمد الله تعالى ـ إلى جمع أصحّ[٢] الأخبار في موضوعات الرقائق المختلفة ، نقلاً عن علماء الأمة الذين برعوا في هذا العلم[٣] : كالإمام شمس الدين بن القيم ، وابن رجب الحنبلي ، والإمام أبي حامد الغزالي ، راجين الله أن ينفع بهذا الكتاب ناقله ، وناشره ، وقارئه « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم » .

ولله الحمد والمنّة . وهو مولانا وإليه المصير .

---

(٢) سورة الشمس الآيات من (١ : ١٠).

(١) يعني السلف الصالح.

(٢) وهذا في الأغلب.

(٣) يعني في علم الرقائق: وليس المقصود في معرفة أصحّ الأخبار؛ لأن الغزّالى (عليه رحمة الله) كما كان يقول مخبراً عن نفسه: «أنا مزجي البضاعة في علم الحديث».

الإخلاص

الإخلاص : هو تجريد قصد التقرب إلى الله ـ عـز وجل ـ عن جميـع الشوائب .

وقيل : هو إفراد الله عز وجل بالقصد في الطاعات .

وقيل : هو نسيان رؤ ية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

والاخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ ، وقد أمرنا الله عز وجل به فقال تعالى(١) :

﴿ وَمَآ أُمِرُوآ إلَّا لِيَعْبُدُواْ آللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾

وعن أبي أمامه ـ رضي الله عنه ـ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ **فقال** : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذِكْر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ : لا شيء لـه ، ثم قال : « إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به

---

(١) سورة البينة الآية (٥).

وجهه » . رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « نَضَر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها ؛ فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل[١] عليهن قلب امرء مؤمن : إخلاص العمل لله ، والمناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم » .

رواه البزار بإسناد حسن وابن حبان في صحيحه[٢] .

والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب ، فمن تخلق بها طَهُر قلبه من الخيانة والدغَل[٣] والشر .

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلّا بالإخلاص لقول الله عز وجل[٤] : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وروى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه : « يا نفس اخلصي تتخلصي » .

وكلُّ حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفسُ ، ويميل إليه القلب ، قلّ أم كثر ، إذا تطرق إلى العمل ؛ تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط في حظوظه ، منغمس في شهواته ، قلما ينفك فعلٌ مِن أفعاله ، وعبادةٌ من عباداته عن حظوظٍ وأغراضٍ عاجلةٍ من هذه الأجناس ؛

---

(٢) صحيح. قاله المنذري في الترغيب (١/٢٤) والحافظ في الفتح (٦/٢٨). وهو عند النسائي في الجهاد (٦/٢٥) وفي عزوه لأبي داود نظر؛ قال ابن القطان: «إنه ليس عند أبي داود». كذا في فيض القدير (٢/٢٧٥).

(١) يغل: بكسر الغين المعجمة وتشديد اللام وضمّ الياء من أغل إذا خان، وبفتح الياء من غلَّ اذا صار ذا حقدٍ وعداوةٍ.

(٢) صحيح: وأخرجه ابن ماجه من عدة طرق قال السندي (١/١٠٤): وقد تكلم في الزوائد على بعض الأحاديث إلّا أن متونها ثابتة عن الأئمة. «ا هـ» وهو عند ابن حبان فيي الموارد ص (٤٧) عن زيد بن ثابت.

(٣) الدغل، بالتحريك: الفساد.

(٤) سورة ص الآية (٨٣).

فلذلك قيل مَن سلم له من عمره لحظةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجه الله نجا ؛ وذلك لعزّةِ الإخلاص ، وعُسْرِ تنقيةِ القلبِ عن الشوائب . فالإخلاص : تنقيةَ القلبِ مِن الشوائب كلِها ، قليلِها وكثيرِها ، حتى يتجرد فيه قصدُ التقرب فلا يكون فيه باعثٌ سِواه ، وهذا لا يتصور إلاّ مِن محبٍ لله مستغرقِ الهمّ بالآخرة ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرارٌ ، فمثلُ هذا لو أكل ، أو شرب ، أو قضى حاجته ، كان خالص العمل ، صحيح النية ؛ ومن ليس كذلك فباب الإخلاص مسدودٌ عليه إلا على الندور .

وكما أن من غلب عليه حب الله ، وحبُ الآخرة ، فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفةُ همه ؛ وصارت إخلاصا ، فالذي يغلب على نفسه الدنيا ، والعلو ، والرياسة ، وبالجملة غير الله[1] ؛ اكتسبت جميعُ حركاته تلك الصفة ؛ فلا تسلم له عبادة من صوم ، وصلاة وغير ذلك إلاّ نادراً .

فإن علاجَ الإخلاص كسرُ حظوظ النفس ، وقطعُ الطمع عن الدنيا ، والتجردُ للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ؛ فإن ذاك يتيسّر به الإخلاص . وكم من أعمال يَتعب الإنسان فيها ، ويظن أنها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها من المغرورين ؛ لأنه لم يْرَ وَجْهَ الآفةِ .

كما حُكي عن بعضهم : أنه كان يصلي دائما في الصف الأول ، فتأخّر يوما عن الصلاة فصلى في الصفِ الثاني ؛ فاعترتْه خجلةٌ من الناس حيث رأَوْه في الصف الثاني ؛ فعَلِم أن مسرّته وراحة قلبه من الصلاة في الصف الأول كانت بسببِ نظرِ الناسِ إليه ، وهذا دقيقٌ غامضٌ قلما تسلم الأعمالُ من أمثاله ، وقلَّ من ينتبه له إلا مَن وفقه الله تعالى . والغافلون عنه يَرَوْن حسناتهم يومَ القيامة سيئاتٍ ، وهم المقصودون بقوله تعالى[1] :

---

(١) أي يغلب على نفسه كل شيء لغير وجه الله .

(١) سورة الزمر آية (٤٧) .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾

وبقوله عز وجل[٢] :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً . ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ .

---

(٢) سورة الكهف (١٠٣ ـ ١٠٤).

بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب : « المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته » .

قال السوسي : « الإخلاص فقدْ رؤ ية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الاخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص » . وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العُجْب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص ، والنظر إليه عُجْب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .

قال أيوب : « تخليص النيات على العُمّال أشد عليهم من جميع الأعمال » .

وقال بعضهم : « إخلاصُ ساعة نجاةُ الأبد ، ولكن الإخلاص عزيزٌ » .

وقيل لسهيل : أي شيء أشد على النفس ؟ قال : « الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب » .

وقال الفضيل : « ترك العمل من أجل الناس رياء ، العمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما » .

حقيقة النية وفضلها

النية : ليست قول القائل بلسانه « **نويت** » ، بل هـو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله ، فقد تتيسر في بعض الأوقات ، وقد تتعذر في بعضها ، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحـوال إحضار النية للخيرات ، فإنّ قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالباً . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه ؛ لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلاّ بجهدِ جهيد . وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[1] عن رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . رواه البخاري ومسلم .

روى عن الشافعي أنه قال : « هذا الحديث ثلث العلم » .

قوله : « **انما الأعمال بالنيات** » يعني أن صلاح الأعمال الموافقة للسنة بصلاح النية ، وهو كقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالخواتيم »[1] ، وقوله ﷺ : « **وإنما لكل امرىء ما نوى** » يعني ثواب العامل عـلى عمله بحسب النيات

---

(١) الحديث رواه البخاري في بدء الوحي (١/٩) ومسلم في الإمارة (١٣/٥٣).

(١) البخاري في القدر (١١/٤٩٩) من حديث سهل بن سعد (رضي الله عنه).

الصالحة التي يجمعها في العمل الواحد ، وقوله : « **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه** » بعد إرساء القاعدة الأولى ذَكَرَ مثالا للأعمال التي صورتها واحدة وتختلف في صلاحها وفسادها .

والنية الصالحة لا تغير المعاصي عن موضعها ، فلا ينبغي أن يَفهم الجاهلُ ذلك من عموم قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » ، فيظن أن المعصية تصير طاعة بالنية ؛ فإن قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » يخص من أقسام العمل الثلاثة : الطاعات ، والمباحات دون المعاصي ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد[٢] ، أما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد ، ودخول النية في المعصية إذا انضاف إليها قصور خبيثة تضاعفَ وزرُها وبالُها .

والطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها ، وفي تضاعف فضلها ، فأما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله وحده ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة . أما المباحات فما من شيء منها إلاّ ويحتمل نية ، أو نيات ، يصير بها من محاسن القربات ، وينال بها معالي الدرجات .

---

(٢) والدليل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه (٧/٩١) من حديث أبي ذرّ مرفوعا: «... وفي بُضْع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر قال أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر. قال النووي : ـ وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوي به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعاً من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه، أو الهمّ به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة ا هـ وسيأتي أثر معاذ (ص ١٠٨): «إني لاحتسب نومتي كما احتسب قومتي».

فضل النية

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : « أفضل الأعمال أداءُ ما افترض الله تعالى ، والورعُ[1] عما حرم الله ، وصدقُ النية فيما عند الله تعالى » .

وقال بعض السلف : « ربّ عمل صغير تعظمه النية ، وربّ عمل كبير تصغره النية » .

وعن يحيى بن أبي كثير : « تعلموا النية ؛ فإنها أبلغ من العمل » .

وصحّ عن ابن عمر أنه سمع رجلاً عند إحرامه يقول : اللهم إني أريد الحج والعمرة فقال له : أتعلم الناس ، أوليس الله يعلم ما في نفسك ؛ وذلك لأن النية هي : قصد القلب ، ولا يجب التلفظ بها في شيء من العبادات[1] .

---

(١) انظر ورع أبي اسحاق الشيرازي : دخل يوما المسجد ليأكل فيه شيئاً على عادته، فنسى ديناراً، فذكره في الطريق فرجع فوجده فتركه ولم يمسه، وقال: ربما وقع من غيري ولا يكون ديناري . كذا في تهذيب الاسماء للنووي (١٧٣/١).

(٢)صححه ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ص (١٩).

فضيلة العلم والتعليم

شواهده في القرآن كثيرة ، منها قوله[٢] عز وجل :

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾

وقوله[٣] عز وجل :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وأما الأخبار[٤] ، قول رسول الله ـ ﷺ ـ : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » . رواه البخاري ومسلم[٥] . وقوله ـ ﷺ ـ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له به طريقا إلى الجنة » . من حديث رواه مسلم[٦] .

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء ، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثل حفظهِ ومدارستَه .

---

(١) خلافاً لطائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد.

(٢) المجادلة آية (١١).

(٣) الزمر آية (٩).

(٤) الخبر والحديث في المشهور بمعنى واحد.

(٥) البخاري في العلم (١/١٩٧) ومسلم في الزكاة (٧/١٢٨) كلاهما عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٦) مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٢١) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

وقوله ﷺ : «سهَّل الله له به طريقا إلى الجنة» قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذي طلبه ، وسلك طريقه ، وييسره عليه ، فإنّ العلمَ طريق يوصل إلى الجنة ، كما قال بعض السلف : « هل مِن طالب علم فيُعان عليه » . وقد يراد به طريق الجنة يوم القيامة وهو الصراط وما قبله وما بعده .

والعلم أيضاً يدل على الله تعالى من أقرب طريق ، فمن سلك طريقه وصل إلى الله تعالى وإلى الجنة من أقرب طريق ، والعلم أيضاً يهتدي به في ظلمات الجهل والشبه والشكوك ، ولهذا سمى الله كتابه نوراً ؛ وفي الصحيحين[1] عن عبد الله بن عمرٍ وعن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ولكن يقبضه بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهّالا فَسُئلوا فأفتَوْا بغير علم فضلوا وأضلّوا » .

وسئل عبادة بن الصامت عن هذا الحديث فقال : « لو شئت لأخبرتك بأول علم يرفع من الناس : الخشوع » .

وإنما قال عبادة رضي الله عنه هذا لأن العلم قسمان : أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان ، هو العلم بالله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله المقتضى لخشيته ، ومهابته ، واجلاله ، ومحبته ، ورجائه ، والتوكل عليه ، فهذا هو العلم النافع كما قال ابن مسعود : » إن أقواما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم[1] ، ولكن إذا وقع في القلب فَرَسَخَ فيه نفع » . وقال الحسن : العلم علمان : علم على اللسان فذاك حجة على ابن آدم ، كما في الحديث[2] : « القرآن حجة لك أو عليك » . وعلم في القلب ، فذاك العلم النافع ، فأول

(١) البخاري في العلم (١/٢٣٤) ومسلم في العلم (١٦/٢٢٣) .

(١) جمع ترقوة وهي : عظم يصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين ولكل إنسان ترقوتان .

(٢) مسلم في الطهارة من حديث أبي مالك الحارث الأشعري (٣/٩٩) .

ما يرفع من العلمِ العلمُ النافعُ ، وهو العلم البـاطن الذي يخـالط القلوب ويصلحها ، ويبقى علم اللسان فيتهاون الناس به ولا يعملون بمقتضاه ، لا حملته ولا غيرهم ، ثم يذهب هذا العلم بذهاب حَمَلته وتقوم الساعة على شرارِ الخلقِ .

أنواع القلب وأقسامه

قال تعالى[٣] :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ .

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود ، الذي تصدر كُلها عن أمره ، ويستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم ، أو يحله ، قال النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كلُه ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلبُ » . متفق عليه[٤] .

فهو ملكها ، وهي المنفذة لما يأمرها به ، القابلة لما يأتيها من هدية ، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته ، وهو المسئول عنها كلها ؛ لأن كل راع مسئول عن رعيته : كان[١] الإهتمام بتصحيحه ، وتسديده ، أولى ما اعتمد عليه السالكون ، والنظر في أمراضِه وعلاجُها أهم ما تنسك به الناسكون .

---

(٣) الاسراء آية (٣٦).

(٤) البخاري في الإيمان (١/١٢٦) ومسلم في المساقاة (١١/٢٦) كلاهما من حديث النعمان ابن بشير وهو قطعة من حديث طويل.

(١) «كان الاهتمام بتصحيحه» خبر لمبتدأ مرّ وهو قوله «ولما كان القلب لهذه الأعضاء. . .»

أقسام القلوب

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها ؛ انقسم بحسب ذلك إلى ثلاثة أقسام : القلب الصحيح أو السليم ، والقلب الميت ، والقلب المريض .

١ - **القلب الصحيح** : هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلاّ من أتى الله تعالى به ، كما قال تعالى[٢] :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وقيل في تعريفه : أنه القلب الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خيره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله ، فخلصت عبوديته لله تعالى ، إرادة ، ومحبة ، وتوكلا ، وإنابة ، وإخباتاً ، وخشية ، ورجاء ، وخلص عمله لله ؛ فإن أحب أحب في الله ، وإن أبغض أبغض في الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الإنقياد والتحكيم لكل مَن عدا رسوله - ﷺ - ؛ فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الإئتمام والإقتداء به وحده ، دون كل أحد

---

(٢) الشعراء الآيتان (٨٨/٨٩).

في الأقوال والأعمال ؛ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل ؛ قال تعالى[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

٢ - **القلب الميت** : وهو ضد القلب السليم ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره[2] وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ، ولذاته ، ولو كان فيه سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله ؛ إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده ، وأحب إليه من رضى مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده ، والجهل سائقه ، والغفلة مركبة ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ، ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه ، والهوى يُصُّمه عما سوى الباطل ويعميه[3] ؛ فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سمّ ، ومجالسته هلاك .

٣ - **القلب المريض** : قلب له حياة وبه علة تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة الله تعالى ، والإيمان به ،

---

(١) الحجرات آية (١).

(٢) ولا بغير أمره.

(٣) كما جاء في الحديث «حبك للشيء يعمي ويصم» وهو عند أبي داود في الأدب (١٤/٣٨) من حديث أبي الدرداء مرفوعاً. وأحمد في المسند مرفوعاً (٥/١٩٤)، وموقوفاً (٦/٤٥٠) على أبي الدرداء ايضا والحديث سكت عليه أبو داود وحسنه بعضهم وضعفه بعضهم. فهو حسن إن شاء الله تعالى.

والإخلاص له والتوكل عليه ، ما هو مادة حياته . وفيه من محبة الشهوات ، وإيثارها ، والحرص على تحصيلها ، والحسد ، والكبر[1] ، والعجب ، ما هو مادة هلاكه وعطبه[2] ، فهو ممتن من داعيين : داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا ، وأدناهما إليه جواراً .

فالقلب الأول : حي ، مخبت[3] ، لين ، واع ، والثاني : يابس ، ميت ، والثالث : مريض ؛ فإما إلى السلامة أدنى ، وإما إلى العطب أدنى .

---

(١) الحسد: أن تكره تلك النعمة لأخيك وتحب زوالها عنه وهو المذموم / وأما الكبر: هو التكبر على العباد واحتقارهم واستعظام النفس عليهم كما قال ﷺ «الكبر بطر الحق وغمط الناس» رواه مسلم (٢/٨٩).

(٢) عطبه: يعني هلاكه.

(٣) مخبت: خاشع متواضع.

علامات مرض القلب وصحته

علامات مرض القلب :

قد يمرض قلب العبد ، ويشتد المرض ، ولا يعرف به صاحبه . بل قد يموت وصاحبه لا يعرف بموته ، وعلامة مرضه أو موته ؛ أن صاحبه لا تؤلمه جراحات المعاصي ، ولا يوجعه جهلهُ بالحق ، وعقائدهُ الباطلة ، فإن القلب إذا كان حياً تألم بورود القبائح عليه ، وتألم بجهله بالحق ـ بحسب حياته ـ وقد يشعر بالمرض ، ويشتد عليه مرارةُ الدواء ؛ فهو يؤثر بقاء الألم على مشقة الدواء .

ومن علامات أمراض القلوب عدولها عن الأغذية النافعة إلى الضارة ، وعدولها عن الدواء النافع إلى دائها الضار ، فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي ، والقلب المريض بضد ذلك . وأنفع الأغذية : غذاء الإيمان ، وأنفع الأدوية : دواء القرآن .

علامات صحة القلب :

أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ، ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها ، وأبنائها ، جاء إلى هذه الدار غريبا يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه ، كما قال ﷺ لعبد الله بن عمر : « كن في الدنيا كأنك غريب أو

عابر سبيل » رواه البخاري[1] وكلما مرض القلب آثر الدنيا ، استوطنها ، حتى يصير من أهلها .

ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ، ويخبت إليه ، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه ؛ فيستغني بحبه عن حب ما سواه ، وبذكره عن ذكرها ما سواه ، وبخدمته عن خدمة ما سواه .

ومن علامات صحة القلب أنه إذا فاته وِردُه[3] أو طاعة من الطاعات ؛ وجد لذلك ألما أعظم مِن تألم الحريص بفوات ماله وفقده .

ومن علامات صحته أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب ، قال يحيى بن معاذ : « من سُر بخدمة الله سُرت الأشياء كلها بخدمته ومَن قَرّت عينه بالله قرّت عُيون كل أحدٍ بالنظر إليه » .

ومن علامات صحته : أن يكون همه واحداً ، وأن يكون في الله ـ يعني في طاعة الله .

ومن علامات صحته : أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بماله .

ومن علامات صحته : أن يكون إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ، ووجد فيها راحته ونعيمه ، وقرة عينه ، وسرور قلبه .

ومن علامات صحته : أن لا يفتر عن ذكر ربه ، ولا يسأم من خدمته ، ولا يأنس بغيره إلاّ بمن يدله عليه ويذكره به .

ومنها أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل ، فيحرص على الإخلاص فيه ، النصيحة ، والمتابعة ، والإحسان ، ويشهد مع ذلك منَّةَ الله عليه فيه ، وتقصيره في حق الله .

---

(١) البخاري في الرقاق (٢٣٣/١١) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) الوِرْد: النصيب من القرآن أو الذكر.

أسباب مرض القلب

والفتن التي تُعرض على القلوب هي أسباب مرضها ، وهي فتن الشهوات والشبهات ، فالأولى : توجب فساد القصد والإدارة ، والثانية : توجب فساد العلم والإعتقاد .

عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير ، عوداً عوداً ، فأيّ قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين : قلبٍ أسود مرباءا كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلّا ما أشرب من هواه ، وقلبٍ أبيض لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض » رواه مسلم[1] .

فقسّم ﷺ القلوب عند مرض الفتن عليها إلى قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء ؛ فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسودّ وينتكس ، وهو معني قوله : « كالكوز مجخياً » أي مكبوتاً منكوساً ، فإذا اسودّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك ،

(١) مسلم في الإيمان (٢/١٧٠) وألفاظه غير هذه.

أحـدهما : اشتبـاه المعروف عليـه بالمنكـر ، فلا يعـرف معـروفـاً ولا ينكـر منكـراً ، وربما استحكم عليـه هذا المـرض حتى يعتقـد المعـروف منكـراً ، والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة ، والبـدعة سنـة ، والحق باطـلا ، والباطـل حقاً . الثاني : تحكيمه هواه على ما جاء به الـرسول ﷺ وانقيـاده للهوى ، واتباعه له .

وقلب[1] أبيض قد أشرق فيه نور الإيمـان ، وأزهر فيـه مصباحـه ؛ فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها ؛ فازداد نوره وإشراقه .

---

(١) وهو القسم الثاني من القلوب عند عرض الفتن عليها.

سموم القلب الأربعة

اعلم أن المعاصي كلها سموم للقلب ، وأسباب لمرضه وهلاكه ، وهي منتة لمرض القلب وإرادته غير إرادة الله عزّ وجل ، وسبب لزيادة مرضه .

قال ابن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوبَ وقد يورثُ الذلَ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوبِ وخيرٌ لنفسِك عصيانُها

فمن أراد سلامة قلبه وحياته فعليه بتخليص قلبه من آثار تلك السموم ، ثم بالمحافظة عليه بعدم تعاطي سموم جديدة ، وإذا تناول شيئاً من ذلك خطأ سارع إلى محو أثرها بالتوبة والاستغفار ، والحسنات الماحية .

ونقصد بالسموم الأربعة : فضول الكلام ، وفضول النظر ، وفضول الطعام ، وفضول المخالطة ؛ وهي أشهر هذه السموم انتشاراً ، وأشدها تأثيراً في حياة القلب .

فضول الكلام

ورد في المسند[1] : عن أنس عن رسول الله ﷺ : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» فشرط ﷺ استقامة الإيمان باستقامة القلب ، ثم شرط استقامة القلب باستقامة اللسان . وفي الترمذي[2] من حديث ابن عمر مرفوعاً « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس عن الله القلب القاسي » . وقال عمر بن الخطاب[3] ـ رضي الله عنه ـ : « مَن كثر كلامه كثر سقطه ؛ ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ؛ ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » .

وفي حديث معاذ قوله ﷺ : « . . ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه ثم قال : كفّ عليك هذا ، قلت : يا نَبِيّ الله

---

(١) ضعيف: قال المنذري: رواه أحمد وابن أبي الدنيا في الصمت كلاهما من رواية عليّ بن مسعده ا هـ (٣/٢٣٤). وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (٨/١٥٣٩).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي في الزهد (٧/٩٢) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلّا من حديث ابراهيم بن عبد الله بن حاطب (ا هـ). وإبراهيم تُرجم له الذهبيُ في الميزان (١/٤١) وذكر هذا الحديث من غرائبه.

(٣) ضعيف: رواه أبو حاتم ابن حبان في روضة العقلاء بنحوه (٨١) والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر، قاله العراقي في تخريج الإحياء (٨/١٥٤١). وقد روي مرفوعاً من حديث ابن عمر رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٧٤) بسند ضعيف كما قال العراقي.

وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ ، فقال : ثَكِلَتك أمك[٤] يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ إلّا حصائد ألسنتهم ؟ » رواه الترمذي والحاكم وصححه على شرطهما[١] . والمراد بحصائد الألسنة : جزاء الكلام المحرم وعقوباته فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسناتِ والسيئاتِ ؛ ثم يحصد يوم القيامة ما زرع ؛ فمن زرع خيراً من قول أو عمل حصد الكرامة ، ومن زرع شراً من قول أو عمل حصد الندامة .

وفي حديث أبي هريرة « أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان : الفم والفرج » أخرجه أحمد والترمذي[٢] . وفي الصحيحين[٣] عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » ، وخرجه الترمذي[٤] بلفظ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً في النار » .

وقال عقبة بن عامر قلت : يا رسول الله مالنجاة قال : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك » رواه البخاري ومسلم[٥] .

---

(٤) أي : فقدتك أمك، وهو دعاء عليه بالموت على ظاهره ولا يراد وقوعه بل تأديبٌ وتنبيهٌ من الغفلة وتعظيمٌ للأمر.

(١) صحيح: الترمذي في الإيمان (٧/٣٦٢) وقال: حسن صحيح، والحاكم في المستدرك في التفسير (٢/٤١٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح: الترمذي في البر والصلة وقال: هذا حديث صحيح غريب (٦/١٤٢)، والحاكم في المستدرك في الرقاق (٤/٣٢٤) وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وعند أحمد (١٩/٧٥) في الفتح الرباني.

(٣) البخاري في الرقاق (١١/٣٠٨) ومسلم في الزهد (١٨/١١٧).

(٤) صحيح الترمذي في الزهد (٦/٦٠٤) وقال حسن غريب من هذا الوجه.

(٥) حسن: ليس في البخاري ولا في مسلم بل أخرجه الترمذي في الزهد (٧/٨٧) بلفظ «أملك» وقال: هذا حديث حسن «اهـ» والقطعة الأولى من الحديث رواه ابن قانع والطبراني عن الحارث بن هشام قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٩٨) والمنذري في الترغيب (٤/٥): رواه الطبراني باسنادين وأحدهما جيد، وعزاه المنذري في الترغيب (٤/٣) لأبي داود والترمذي. وأما رواية «أمسك» فهي عند أبي نعيم في الحلية (٢/٩).

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من يتكفل لي ما بين لحييه وفخذيه أتكفل له الجنة » رواه البخاري[1] .

وقوله ﷺ ـ في حديث الصحيحين[2] ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » أمر منه ﷺ بقول الخير والصمت عما عداه ، فالكلام إما أن يكون خيراً فيكون العبد مأموراً به ، وإما أن يكون غير ذلك فيكون مأموراً بالصمت عنه ، وخرج[3] الترمذي ، وابن ماجة من حديث أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ : « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر الله عز وجل » .

الآثار : دخل عمر بن الخطاب على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فوجده يجبذ لسانه بيده ، فقال عمر : مه غفر الله لك ، فقال أبو بكر : هذا الذي أوردني الموارد[4] .

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : « والله الذي لا إله إلّا هو ليس شيء أحوج إلى طول سجن من لساني » . وكان يقول « يا لسان قل خيراً

---

(١) البخاري في الرقاق (١١/٣٠٨) والحدود (١٢/١١٣) عن سهل بن سعد. وليس بلفظ (يتكفل) بل في الرقاق (يضمن) وفي الحدود (توكل) فاعلمه.

(٢) البخاري في الرقاق (١١/٣٠٨) ومسلم في الإيمان (٢/١٨).

(٣) حسن: الترمذي في الزهد (٧/٩٣) وابن ماجه في الفتن (٢/١٣١٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من حديث محمد بن يزيد بن خنيس. قال المنذري في الترغيب (٤/١٠) رواته ثقات وفي محمد بن يزيد كلام قريب لا يقدح وهو شيخ صالح «ا هـ».

(٤) حسن: وتمامه أن رسول الله قال: ليس شيء من الجسد إلّا وهو يشكو ذرب اللسان أخرجه أبو يعلى في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكر كما عزاه السيوطي في الجامع الصغير ورمز لحسنه (٥/٣٦٧) ونقل السيوطي في الجامع الكبير عن الحافظ ابن كثير أنه قال: إسناده جيد «أ هـ» وعزاه العراقي في الاحياء (٨/١٥٣٩) إلى ابن أبي الدنيا أيضاً في الصمت وقال: والحديث قال عنه الدارقطني روي هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له. (ا هـ).

تغنم ، واسكت عن شر تسلم مِن قبل أن تندم » .

وعن أبي هريرة عن ابن عباس قال : « إنـه بلغني أن الإنسان « أراه قال » ليس على شيء من جسده أشد حنقاً أو غيظاً يوم القيامة منه على لسانه إلاّ من قال به خيراً أو أملى به خيراً » .

وقال الحسن : ما عقل دينَه مَن لم يحفظ لسانه .

وأقل آفات اللسان ضرراً الكلام فيما لا يعني ، ويكفي في بيان خطر هذه الآفة قوله ﷺ : « مِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . حـديث حسن[1] .

وروى أبو عبيدة عن الحسن قال : « من علاقة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلاناً من الله عز وجلّ » . وقال سهل : « من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق » .

وهذه كما ذكرنا أخف آفاق اللسان ضرراً ، وناهيك عن الغِيبة والنميمة والكـلام الباطـل الفاحش ، كـلام ذي الوجهـين . والمـراء ، والجـدال ، والخصومة والغناء ، والكذب ، والمدح ، والسخرية ، والاستهزاء ، والخطأ في فحوى الكلام ؛ وغير ذلك مِن الآفات التي تصيب لسان العبد فتفسد عليه قلبه ، وتضيع عليه سرورَه ونعيمَه في الدنيا ، وفوزَه وفلاحَه في الآخرة . والله المستعان .

---

(١) صحيح: الترمذي في الزهد (٦/٦٠٧) من حديث ابن هـريرة وقـال الترمـذي: غريب. وأحمد في المسند (١/٢٠١) والفتح الرباني (١٩/٢٥٧) قال الشيخ شاكـر في تحقيق المسند ٣/١٧٧) اسناده صحيح ا هـ وحسنه النووي في الـرياض بـرقم (٦٨) وفي الاربعين رقم (١٢). وقال الهيتمي في الفتح المبين (١٤٤): اشار ابن عبد البر إلى أنه صحيح ا هـ.

فضول النظر

وفضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور في قلب الناظر ؛ فيُحدث أنواعاً من الفساد في قلب العبد :

ـ منها : ما ذكره رسول الله ﷺ ـ كما جاء في المسند[1] ـ ما معناه : « والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس ؛ فمن غضّ بصره لله أورثه حلاوةً يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه » .

ـ منها : دخول الشيطان مع النظرة ، فإنه ينفذ معها أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي ؛ ليُزين صورة المنظور ، ويجعلها صنماً يعكف عليه

(١) ضعيف: واللفظ المذكور عند الطبراني (٨/٦٣) من المجمع. والحاكم في المستدرك (٤/٣١٤) ولفظ أحمد في المسند (٥/٢٦٤) من حديث أبي أمامة: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلاّ أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها» قال ابن كثير في تفسير سورة النور آية (٣٠) بعد أن ساق رواية أحمد (٥/٨٦): وروى هذا مرفوعاً عن ابن عمر وحذيفة وعائشة ولكن في أسانيدها ضعف. (ا هـ). قال البيهقي: إنما مرادُه إن صحّ ـ والله أعلم ـ أن يقع بصره عليها من غير قصد فيصرف بصره عنها تورعاً (ا هـ) من الزواجر الكبيرة رقم (٢٤٢). ويغني عنه في تحريم ذلك ما ثبت عند أبي داود في النكاح (٦/١٨٦) والترمذي في الآداب (٨/٦١) وحسنه والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢/١٩٤): «يا عليّ لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة» وكذلك ما أخرجه مسلم في الآداب (١٤/١٣٨) عن جرير بن عبد الله قال: «سألت رسولَ الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري».

القلبُ ، ثم يَعِدهُ ويمنيه ، ويـوقد عـلى القلب نار الشهـوات ويلقي حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة .

ـ منها : أنه يشغل القلب ، وينسيه مصالحه ، ويحول بينه وبينهـا ؛ فينفرط عليه أمره ، ويقع في اتباع الهوى والغفلة ، قال الله تعالى(١) :

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ .

وإطلاق البصر يوجب هذه الأمور الثلاثة .

وقال أطباء القلوب : بين العين والقلب منفذ وطريق ، فـإذا خَربت العين وفسدت خَرب القلبُ وفسدَ وصار كالمزبلة التي هي محل النجـاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ ، فلا يصلح لسُكْن معرفةِ الله ومحبتهِ ، والإنابة إليه ، والآنس به ، والسرور بقربه ، وإنما يسكن فيه أضدادُ ذلك .

وإطلاقُ البصر معصية لله عز وجل لقوله تعالى(٢) :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وما سعد من سعد في الدنيا إلاّ بامتثال أمر الله ، ولا نجـاة للعبد في الآخرة إلاّ بامثال أوامر الله عز وجلّ .

وإطلاق البصر كذلك يُلبس القلبَ ظلمة ، كما أن غضّ البصر لله عز وجلّ يُلبسه نوراً ، وقد ذكر الله عز وجلّ آية النور(١) :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ .

بعد قوله عز وجلّ :

---

(١) الكهف آية (٢٨).

(٢) النور آية (٣٠).

(١) من سورة النور آية (٣٥).

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . ﴾ .

وإذا استنار القلب ، أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم ؛ أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان .

وإطلاقُ البصر كذلك يعمي القلبَ عن التمييز بين الحق والباطل ، والسنةِ والبدعة ، وغضهُ لله عز وجلّ يورثه فراسة صادقة يميز بها .

قال أحد الصالحين : « من عمّر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بـدوام المراقبة ، وغضّ بصره عن المحارم ، وكفّ نفسه عن الشبهات ، واغتـذى بالحلال لم تخطىء له فراسة » .

والجزاء مِن جنس العمل ؛ فمن غضّ بصره عن محارم الله أطلق الله نورَ بصيرته .

فضول الطعـام

قلةُ الـطعـام تـوجب رقـةَ القلب، وقـوةَ الفَهم، وانكسـارَ النفس، وضعفَ الهوى والغضب، وكثرةُ الطعام توجب ضد ذلك .

عن المقـدام بن مَعْد يكـرِبَ قال : سمعتُ رسـولَ الله ﷺ يقـول : « ما ملأ ابن آدم وعـاءاً شراً من بـطنه ، بحسب ابن آدم لقيمـات يضمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعـامه ، وثلث لشـرابه ، وثلث لِنَفَسِـه » رواه أحمد والترمذي وقال حسن[1] .

وفضول الطعام داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فـإنه يحـرك الجوارح إلى المعاصي ، ويثقلها عن الطاعات والعبـادات ، وحسبك بهـذين شراً ، فكم من معصيـة جلبها الشبعُ وفضولُ الـطعـام ، وكم مِن طـاعـة حـال دونها ، فمن وقى شـرّ بطنـه فقد وقى شـراً عظيـماً . والشيطان أعـظم مـا يتحكم في الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ؛ ولهذا جاء في بعض[2] الآثار

---

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند (٤/١٣٢) والفتح الرباني (١٧/٨٨) في الأطعمة والترمذي في الـزهد (٧/٥١) إلاّ أنـه عنده بلفظ (آدمي) بـدلاً من (ابن آدم) و (أكلات) بـدلاً من (لقيمـات) وقال التـرمذي حسن صحيـح. وقال الحـاكم: صحيح الإسنـاد ولم يخرجـاه. ووافقه الذهبي (٤/٣٣١).

(٢) ضعيف: «لا أصل له في كتب السنة» وذكره الغزالي في الإحياء فقال: وفي خبر مرسل (٨/١٤٨٨) «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا. . .»

« ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم » .

وقال بعض السلف : كان شباب يتعبدون مِن بني إسرائيل ، فاذا كان فطُرهم قام عليهم قائم فقال : « لا تأكلوا كثيراً ؛ فتشربوا كثيراً ؛ فتناموا كثيراً ؛ فتخسروا كثيراً » .

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه يجوعون كثيراً - وإن كان ذلك لعدم وجود الطعام - إلاّ أن الله لا يختار لرسوله إلاّ أكمل الأحوال وأفضلها ، ولهذا كان ابن عمر يتشبه به في ذلك مع قدرته على الطعام ، وكذلك كان أبوه من قبله ، ففي الصحيحين[1] : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة مِن خبز بَرٍ ثلاث ليال تباعاً حتى قبض » .

قال ابراهيم بن أدهم : « من ضبط بطنه ضبط دينَه ، ومن ملك جوعَه ملك الأخلاقَ الصالحةَ ، وإن معصية الله بعيدةٌ من الجائع قريبةٌ من الشبعان » .

قال العراقي : - وذكَر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة. وذكره في الإحياء أيضاً في أسرار الصوم (٣/٤٢٢). وقال العراقي : متفق عليه من حديث صفية دون قوله «فضيقوا مجاريه». . .

(١) البخاري في الأطعمة (٩/٥٤٩) ومسلم في الزهد (٨/١٠٥).

فضول المخالطة

هي الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سَلبت المخالطةُ والمعاشرةُ مِن نعمـةٍ ، وكم زَرَعت مِن عداوة ، وكم غَـرست في القلبِ من حزازاتٍ تزول الجبالُ الـراسياتُ وهي في القلوب لا تـزول ؛ ففي فضول المخـالطة خسارةُ الدنيا والآخرةِ . وإنما ينبغي للعبد أن يأخذَ من المخالطة ، ويجعـل الناس فيها أربعة أقسامٍ متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميـز بينها دخـل عليه الشر :

أحدهما : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليـوم والليلة ، فإذا أخـذ حاجتـه منه تـرك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليـه خالـطه ، هكـذا عـلى الـدوام ، وهم العلماء بـالله وأمـره ومكـايـد عـدوه ، وأمـراضِ القلوبِ وأدويتهـا الناصحـون لله ولكتابـه ولرسـوله ﷺ ولخلقـه فهـذا الضـرب في مخالطتهم الربح كلَّ الربح .

القسم الثاني : من مخالطته كالدواء ، يحتـاج إليه عنـد المرض ، فـما دُمْتَ صحيحـاً فـلا حـاجـة لـك في خلطتــه ، وهم من لا يستغنى عن مخـالطتهم في مصلحـة المعاش ومـا أنت تحتاج إليـه من أنـواع المعـامـلات والاستشارة ونحوها ، فإذا قضيت حاجتك من مخـالطة هـذا الضرب بقيت مخالطتهم مِن .

القسم الثالث : وهـم مَن مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه

وقوته وضعفه ، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن[1] ، وهو من لا تربح عليه دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلابد أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلتْ فهي مرضُ الموت المخوف . ومنهم الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل إذا تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، فهو يُحدِث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإذا سكت فأثقل من نصف الرحا[1] العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض[2] .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف للروح فعرضية ولازمة ، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلي بواحدٍ من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ، فليعاشره بالمعروف ويعطيه ظاهره ويبخل عليه بباطنه حتى يجعل الله له من أمره فَرَجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : من مخالطة الهلك كله ، فهي بمنزلة أكل السم ، فإذا اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله العزاء ، وما أكثر هذا الضرب في الناس ـ لا كثّرهم الله ـ وهم أهل البدع والضلالة ، الصادقون عن سنة رسول الله ﷺ ، الداعون إلى خلافها ، فيجعلون السنة بدعة والبدعة سنة ، وهذا الضرب لا ينبغي للعاقل أن يجالسهم أو يخالطهم ، وإن فعل فإما الموت لقلبه أو المرض .

نسأل الله لنا ولهم العافية والرحمة .

---

(١) زَمِنَ : مرض مرضاً يدوم زماناً طويلاً .

(١) الرحا : الأداة التي يطحن بها وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب .

(٢) ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال : ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر .

أسباب حياة القلب وأغذيته النافعة

اعلم أن الطاعات لازمة لحياة قلب العبد لزوم الطعام والشراب لحياة الجسد ، وجميعَ المعاصي بمثابة الأطعمة المسمومة التي تفسد القلب ولابد ، والعبد محتاج إلى عبادة ربه عز وجلّ ، فقير إليه فقراً ذاتياً ، وكما يأخذ العبد بالأسباب لحياة جسده من المداومة على تناول الأغذية النافعة في أوقات متقاربة ، وإذا تبين له أنه تناول طعاماً مسموماً عن طريق الخطأ أسرع في تخليص جسده من الأخلاط الرديئة ، فحياة قلب العبد أولى بالإهتمام من جسده ، فإن كانت حياة الجسد تؤهله لمعيشة غير منغصة بالمرض في الدنيا . فحياة القلب تؤهله لحياة طيبة في الدنيا وسعادة غير محدودة في الآخرة ، وكذلك موت الجسد يقطعه عن الدنيا ، وموت القلب تبقى آلامه أبدُ الآباد .

وقال أحد الصالحين : « يا عجباً من الناس يبكون على من مات جسدُه ولا يبكون على من مات قلبه ، وهو أشد » . فإذن الطاعات كلها لازمة لحياة القلب ونخص هذه بالذكر ـ لضرورتها لقلب العبد وشدة الحاجة إليها ـ ذكرَ الله عز وجل ، وتلاوة القرآن ، والاستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبي ﷺ ، وقيامَ الليل .

ذكر الله وتلاوة القرآن

وضرورة الذكر للقلب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - : « الذكر للقلب كالماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء » وقد ذكر الإمام شمس الدين بن القيم ما يقرب من ثمانين قائدة في كتابه « الوابل الصيب » ، فننقل بعضها بإذن الله تعالى ، وننصح بالعودة إلى الكتاب المذكور لعظيم نفعه . من هذه الفوائد :

أن الذكر قوت القلوب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته . ومنها : أنه يطرد الشيطان ، ويقمعه ، ويكسره ، ويرضى الرحمن عز وجلّ ، ويزيل الهم والغمّ عن القلب ، ويجلب له الفرح والسرور والبسط ، وينور القلب والوجه ، ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة ، ويورثه محبة الله عز وجلّ ، وتقواه ، والإنابة إليه ، وكذلك يورث العبدَ ذكرَ الله عز وجلّ كما قال تعالى[1] :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ،

ولو لم يكن في الذكر إلاّ هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً ، ويورث القلب من الغفلة ، ويحط الخطايا .

ورغم أنه من أيسر العبادات ؛ فالعطاء والفضل الذي رتب عليه لم

(١) سورة البقرة آية (١٥٢).

يرتب على غيره من الأعمال ، ففي الصحيحين[٢] عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ ـ قال : « **من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قديرٌ . في اليوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمس ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاّ رجل عمل أكثر منه** » .

وفي الترمذي[١] عن جابر عن النبي ﷺ قال : « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » . قال الترمذي حسن صحيح .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لإن أُسبِّحَ الله تعالى تسبيحات أحب إليّ من أن أنفق عددهم دنانير في سبيل الله عز وجل » .

والذكر دواء لقسوة القلوب ؛ كما قال رجل للحسن يا أبا سعيد : أشكو إليك قسوة قلبي ، قال : « أَذِبْه بالذكر » . وقال مكحول : « ذكْر الله شفاءٌ ، وذكْر الناس داءٌ » . قال رجل لسلمان أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن « **ولذكر الله أكبر** » .

وفي صحيح[٢] البخاري : عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميّت » .

وفي الترمذي[١] : عن عبد الله بن بسر « أن رجلاً قال يا رسول

---

(٢) البخاري في الدعوات (١١/٢٠١) ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/١٦) واللفظ للبخاري .

(١) صحيح : رواه الترمذي في الدعوات (٩/٤٣٣) وقال : حسن غريب صحيح . وقال الهيثمي بعد أن عزاه للبزار (١٠/٩٤) : إسناده جيد ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/٥٠١) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (١١/٢٠٨) .

(١) صحيح : الترمذي في الدعوات (٩/٣١٤) وقال حسن غريب . وأخرجه الحاكم في كتاب الدعاء (١/٤٩٥) وصححه ووافقه الذهبي . وليس هذا لفظ أحدها .

الله : إن أبواب الخير كثيرة ولا أستطيع القيام بكلها ، فأخبرني بما شئت أتشبث به ولا تكثر عليّ فَأَنْسَ قال : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى » .

ودوام الذكر تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة ، وسبباً لاشتغال العبد عن الكلام الباطل من الغيبة[٢] والنميمة وغير ذلك ، فإما لسان ذاكر وإما لسان لاغ ، فمن فُتح له بابُ الذكر فقد فُتح له بابُ الدخول على الله عز وجل ، فليتطهر وليدخل على ربه عز وجلّ ، يجد عنده ما يريد ، فإنْ وجدَ ربه عز وجلّ وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عز وجلّ فاته كل شيء .

وللذكر **أنواع** : منها ذكر أسماء الله عز وجل ، وصفاته ، ومدحه ، والثناء عليه ، بها نحو : « سبحان الله » ، و « الحمد لله » ، و « لا إله إلاّ الله » ؛ ومنها الخبر عن الله عز وجلّ بأحكام أسمائه وصفاته ، نحو : الله عز وجل يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم ، ومنها ذكر الأمر والنهي كأن تقول : إن الله عز وجلّ أمر بكذا ، ونهى كذا .

ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكرُ آلآئه وإحسانه ، وأفضل الذكر تلاوة القرآن ، وذلك لتضمنه لأدوية القلب وعلاجه من جميع الأمراض ، قال الله تعالى[١] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وقال الله تعالى :

---

(٢) النميمة : هي نقل حال الشخص لغيره على جهة الإفساد بغير رضاه سواء كان بعلمه أم لا .

الغيبة : ذكرك أخاك بما يكره. فامتازت النميمة بقصد الإفساد، ولا يشترط ذلك في الغيبة، وامتازت الغيبة بكونها في غيبة المقول فيه، واشتركتا فيما عدا ذلك.

(١) سورة يونس آية (٥٧).

(٢) الإسراء آية (٨٢).

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وأمراض القلب تجمعها أمراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبيِّنُ الحقَ من الباطلِ فتزول أمراض الشبه المفسِدة للعلم ، والتصورِ ، والإدراكِ ، بحيث يرى الأشياء على ما هي .

فمن درس القرآنَ وخالط قلبَه ؛ أبصر الحق والباطلَ وميّزَ بينهما ، كما يُميز بعينيه بين الليل والنهار . وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة ؛ بالتزهيد في الدنّيا ، والترغيب في الآخرة .

وقد صح[3] عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من سرّه أن يحب الله وَرسولَه فليقرأ في المصحف » .

والقرآن كذلك أعظم ما يقرب العبد لربه عز وجلّ؛ قال خباب بن الأرت رضي الله عنه لرجل : «تقرب إلى الله ما استطعت واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه».

وقال ابن مسعود (رضي الله عنه) : «من أحب القرآن أحب الله ورسوله»

وقال عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) : «لو طَهُرتْ قلوبُكم ما شبعتْ من كلام ربكم»

---

(٣) ضعيف: بل هو منكر: قال بن عديّ: هذا لا يرويه عن شعبة غير الحر بن مالك وللحر عن شعبة وعن غيره عدة أحاديث ليست بالكثيرة، فأما هذا الحديث عن شعبة بهذا الإسناد فمنكر «ا هـ» من التهذيب (٢/٢٢٢) ترجمة الحر بن مالك. قال الذهبي في الميزان: الحر بن مالك أبو سهل العنبري أتى بخبر باطل فذكره ثم قال: وإنما اتخذت المصاحف بعد النبي ﷺ ا هـ (١/٤٧١) وتعقبه الحافظ في اللسان بأن هذا التعليل ضعيف ولكن الحر مجهول الحال ا هـ (٢/١٨٥) ورمز السيوطي في الجامع الصغير له بالضعف (٦/١٥٠).

وبالجملة فأنفع شيء للعبد هو ذكر الله عز وجلّ[1]

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾

وأفضل الذكر تلاوة كتاب الله عز وجلّ .

---

(١) الرعد آية ٢٨ .

الاستغفار

وهو طلب المغفرة، والمغفرة : هي وقاية شر الذنوب مع سترها، وقد كثر ذكر الاستغفار في القرآن، فتارة يؤمر به كقوله سبحانه وتعالى[٢] :

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وتارة يمدح أهله كقوله تعالى[٣] :

﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾

وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره كقوله تعالى[٤] :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

وكثيراً ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذٍ عبارة عن طلب المغفرة باللسان .

والتوبة عبارة عن : الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح ، وحكم الاستغفار كحكم الدعاء فإن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه ، لا سيما إذا

(٢) المزمل آية ٢٠ .
(٣) آل عمران آية ١٧ .
(٤) النساء آية ١١٠ .

خـرج عن قلب منكسر بـالذنـوب أو صادف سـاعةً من سـاعات الإجـابة كالأسحار[1] وأدبار الصلوات .

ويروى عن لقمان أنه قال لابنـه : يا بني عـود لسانـك «اللهم اغفر لي» فـإن الله سـاعـات لا يَـردُّ فيهـا سـائـلا . وقـال الحسن : «أكثـروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائـدكم، وفي طرقكم، وفي أسـواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم؛ فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة» .

وفي صحيح[2] البخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : « والله إني لأستغفر الله وأتـوب إليه في اليـوم أكثر من سبعـين مرة » وفي الصحيحين[3] عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال سمعت النبي - ﷺ - قـال : « إن عبداً أذنب ذنبـاً فقال : رب أذنبت ذنبـاً فاغفـر ، فقال ربه : أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبـدي ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً فقال : ربّ أذنبت آخـر فاغفـره ، فقال : أَعَلِمَ عبدي أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفـرت لعبدي ، ثم مكث مـا شاء الله ثم أذنب ذنبـاً ـ فقال : رب أذنبت آخـر فاغفـر لي ، فقـال : أَعَلِمَ عَبدي أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء » . وفي رواية لمسلم[1] « أنه قال في الثالثة (قد غفرت فليعمل مـا شاء) » . والمعنى ما دام على هذه الحـال كلّما أذنب استغفر . والـظاهر أن مراده الإستغفار المقرون بعدم الإصرار .

قالت عائشة[2] (رضي الله عنها) : « طـوبى لمن وَجد في صحيفتـه

---

(١) جمع سَحَرْ، وهو آخر الليل قبيل الفجر.

(٢) البخاري في الدعوات (١١/١٠١).

(٣) البخاري في التوحيد (١٣/٤٦٦) واللفظ له، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٧٥).

(١) مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٧٦).

(٢) صحيـح : ولكن ليس بموقـوف على عـائشة بـل أخـرجه ابن مـاجـة مـرفـوعـا في الأدب (٢/١٢٥٤) من حديث عبد الله بن يسر وأبو نعيم في الحلية مرفـوعا من حـديث عائشـة

استغفاراً كثيراً » . وبالجملة فدواء الذنوب الإستغفار .

قال قتادة : إن هذا القرآن يـدلكم على دائكم ودوائكم فـأما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالإستغفار .

وقـال عليّ - (كـرّم الله وجهـه)[٣] - : مـا ألهم الله سبحـانـه عبـداً الاستغفارَ وهو يريد أن يُعذبَه .

(١٠/٣٩٥) وقال البوصيري في الزوائد اسناده صحيح ورجاله ثقات. وعـزاه المنذري في الترغيب للبيهقي أيضاً مـرفوعـاً وقال إسنـاده صحيح ا هـ (٢/٢٦٨). وقـال النووي في الأذكـار روينا في ابن مـاجهبـإسناد جيـد عن عبد الله بن بسـر فذكـره ا هـ (٥٤٧). وأما الموقوف فعند أحمد في الزهد على أبي الدرداء كذا في القبض (٤/٢٨٢).

(٣) والحكمة في استعمال «كرم الله وجهه» في حق عليّ بن أبي طالب دون غيـره أنه لم يسجـد لصنم قط فناسب أن يدعي له بما هو مطابق لحاله من تكـرمة الـوجه، ويقـال ذلك أيضـاً لأبي بكر.

الـدعــاء

قال الله تعالى[1] : « **أدعوني أستجب لكم** » ، فأمرنا الله عـز وجل بالدعاء ، ووعدنا بالإجابة ، ثم عقب بقوله عز وجل[2] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

فسبحـان الله العظيم ، ذي الكـرم الفياض والجـود المتتابـع ؛ جعل سؤال عبده لحوائجه وقضاء مآربه عبـادة له ، وطلبـه منه وذمـه على تـركه بأبلغ أنواع الذم فجعله مستكبراً عليه .

وأخرج الترمذي[3] من حديث أبي هـريرة عن النبي ﷺ أنـه قال : « **من لم يسأل الله يغضب** [4] **عليه** » .

وما أحسن قول القائل :

لا تـسـألـن بـني آدم حـاجـة	وسـل الـذي أبـوابـهُ لا تحجبُ
الله يغضـب إن تـركتَ سؤالَـه	وإذا سـألـتَ بـني آدم يـغـضـبُ

---

(١) سورة غافر آية (٦٠).

(٢) نفس الآية (٦٠) في آخرها.

(٣) حسن: أخرجه الترمذي في الـدعوات (٩/٣١٣) واللفظ لـه، وابن مـاجـة في الـدعـاء (٢/١٢٥٨) والحاكم في الدعاء (١/٤٩١) وصححه ووافقه الذهبي، ورمز السيوطي لـه في الجامع الصغير بالحسن (٣/١٢).

(٤) يغضب عليه: لأنه إما قانط وإما مبتكر وكل واحد من الأمرين موجب للغضب.

وقال عز وجل[٥] : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . . . الآية » . وقال تعالى[١] :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

وعن النعمان بن بشير قال : قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ثم تلا الآية :

﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم راخرين ﴾ . صححه[٢] الترمذي .

والدعاء يقطع بقبوله لعموم الآيات التي قدمنا ذكرها ، وكذلك الأحاديث الآتية ـ إذا استوفى شروط الصحة ـ .

حديث سلمان عند أبي داود والترمذي وحسنه[٣] ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حي كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبتين » . وحديث أنس عنه ﷺ أنه قال ؛ « لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » ، صححه ابن حبان والحاكم والضياء[٤] .

---

(٥) النحل آية (٦٢).

(١) البقرة آية (١٨٦).

(٢) صحيح الترمذي في الدعوات (٩/٣١١) وقال: حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (١/٤٩١). وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه اهـ ووافقه الذهبي، وقال النووي في الأذكار (٥٢٥) روينا بالأسانيد الصحيحة في سنن ابي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه فذكره.

(٣) حسن: أخرجه الترمذي في الدعوات (٩/٥٤٤) واللفظ له، وأبو داود في الدعاء (٤/٣٥٩) وسكت عليه، ونحوه عند الحاكم في الدعاء (١/٤٩٧) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) ضعيف: الحاكم في المستدرك (١/٤٩٣) وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي، وقال الحافظ في اللسان (٤/٣٢٨): صححه الحاكم فتساهل في ذلك اهـ

وأخرج[1] أحمد ، والبزار ، وأبو يعلى ؛ بأسانيد جيدة ، والحاكم - وقال صحيح الإسناد - من حديث أبي سعيد الخدري ، أن النبي ﷺ وآله قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطعية رحم إلّا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : « أنا لا أحمل همّ الإجابة ولكن أحمل همّ الدعاء فمن ألهم الدعاء فإن الإجابة معه » .

ورواه ابن حبان في الأدعية (٥٩٦ موارد) .

(١) صحيح : قاله المنذري في الترغيب رواه احمد والبزار وابو يعلى بأسانيد جيدة ا هـ وأخرجه الترمذي في الدعوات (٩/٩٢٣) وقال حسن صحيح غريب .

آداب الدعاء

أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة : كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من الليل .

أن يغتنم الأحوال الشريفة : كنزول المطر ، وزحف الصفوف في سبيل الله ، وحال السجود ؛ لحديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء » رواه مسلم[٢] وكذلك بين الآذان والإقامة ؛ لقوله ﷺ : « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يردّ » . رواه الترمذي وحسنه[٣]

أن يجزم بالدعاء ، ويوقن بالإجابة ، قال ﷺ : « لا يقولن أحدكم اللهمّ اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة فإنه لا مستكره له » متفق عليه[١] من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) .

---

(٢) مسلم في الصلاة (٤/٢٠٠).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي في الصلاة (١/٦٢٤) أولاً ثم قال: حديث حسن صحيح اهـ وأخرجه في الدعوات (١٠/٥٣) ثانياً ثم قال: هذا حديث حسن اهـ. وسكت عليه أبو داود في الصلاة (٢/٢٢٤). وقال العراقي في تخريج الإحياء (٣/٥٥٠): رواه النسائي في اليوم والليلة باسناد جيد اهـ. وصححه السيوطي في الجامع (٣/٥٤١).

(١) البخاري في التوحيد (١٣/٤٤٨) واللفظ له، والدعوات (١١/١٣٩)؛ ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٧).

أن يكون على طهارة ، مستقبل القبلة ، ويكرر الدعاء ثلاثاً . رواه مسلم[٢]

يبدأ بحمد الله عز وجل ، ويثني عليه بأسمائه ، وصفاته ، وآلائه ، ويثني بالصلاة على رسول الله ﷺ ثم يسمي حاجته ، ويختم كذلك بالصلاة على رسول الله ﷺ وحمد الله عز وجلّ .

يطيب مطعمه ، ولا يدعو بإثم ، ولا بقطيعة رحم .

لا ينبغي تعجل الإجابة ، ولا يقول دعوت ولم يستجب لي ، لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي » رواه البخاري[٣] ومسلم .

قال ابن بطال : « المعنى أنه يسأم فيترك الدعاء فيكون كالمانّ بدعائه . أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة ، فيصير كالمنجل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ، ولا ينقصه العطاء » . اهـ .

وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء ، وهو أن يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة ؛ لما في ذلك من الإسلام والإنقياد وإظهار الإفتقار .

---

(٢) مسلم في الجهاد (١٢/١٥٢) وهو قطعة من حديث طويل يحكيه ابن مسعود (رضي الله عنه) .

(٣) البخاري في الدعوات (١١/١٤٠) ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٥١) .

الصلاة على النبي « ﷺ »

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : « من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً » رواه مسلم[1] وغيره . . أي عشر صلوات وذلك (لأن الحسنة بعشر أمثالها والصلاة على النبي ﷺ من أعظم الحسنات .

قال ابن العربي : « إن قيل : قال الله تعالى[2]
﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ .

فما فائدة هذا الحديث ؟ قلنا : أعظم فائدة وذلك أن القرآن اقتضى أن من جاء بحسنة تضاعف عشرة ، والصلاة على النبي ﷺ حسنة بمقتضى القرآن أن يعطي عشر درجات في الجنة . فأخبرأن الله تعالى يصلّي على من صلّى على رسوله عشراً ، وذِكْرُ الله للعبد أعظَمُ من الحسنة مضاعفة ، ويحقق ذلك أن الله تعالى لم يجعل جزاء ذكره إلاّ ذكْرَه ، وكذلك جعل جزاء ذكر نبيه ذكر من ذكره » ا . هـ .

قال العراقي : ـ ولم يقتصر على ذلك حتى زاده كتابة عشر حسنات ، وحط عنه عشر سيئات ، ورفعه عشر درجات ، كما ورد في الأحاديث .

(١) مسلم في الصلاة (٤/١٢٨).
(٢) سورة الأنعام الآية (١٦٠).

منها : عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال : « من ذكرت عنده فليصلّ عليّ ، ومن صلّى عليّ مرة واحدة صلّى الله عليه بها عشراً » وفي رواية « من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات » . **رواه أحمد ، والنسائي واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه**[1] . قوله « من ذكرت عنده فليصل عليّ » ظاهر الأمر الوجوب بدليل قوله في الحديث الآخر « البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليّ » **النسائي والترمذي وابن حبان**[2] .

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال : « إن لله ملائكة سيّاحين يبلغوني عن أمتي السلام » **رواه أحمد ، والنسائي**[3] .

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة » **رواه الترمذي ، وابن حبان في صحيحه**[4] .

---

(١) صحيح : ـ رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة، رقم (٣٨٢) من حديث أنس. قال النووي في الأذكار إسناده جيد، وتعقبه ابن حجر في نتائج الأفكار بأن فيه انقطاعاً. وعزا الهيثمي في المجمع (١٠/١٦٣) القطعة الأولى من الحديث للطبراني في الأوسط وقال رجاله رجال الصحيح. وأخرج مسلم في صحيحه القطعة الأخيرة منه (٤/١٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح : ـ النسائي في فضائل القرآن رقم (١٢٥). ورواه الترمذي في الدعوات (٩/٥٣١) من حديث علي بن أبي طالب وقال: حسن غريب صحيح ا هـ وابن حبان ص (٥٩٤) موارد. وأحمد في المسند (١/٢٠١) وقال الشيخ أحمد شاكر (١٧٣٦) إسناده صحيح (ا هـ) والحاكم في الدعاء (١/٥٤٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح : رواه أحمد (١/٣٨٧) وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح رقم (٣٦٦٦). والنسائي في السهو (٣/٤٣) وقال ابن القيم في جلاء الإفهام ص ٢٣ : إسناده صحيح.

(٤) حسن : رواه الترمذي في الوتر (٢/٦٠٧) وقال: حسن غريب ا هـ. وابن حبان ص ٥٩٤ موارد.

ويستحب كثرة الصلاة على رسول الله ﷺ يوم الجمعة لحديث أوس ابن أوس (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ ، قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت[1] يعني بليت ؟ فقال : إن الله عزّ وجلّ حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . **رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه وغيرهم**[2] .

أما صيغة الصلاة على رسول الله ﷺ فورد في مسلم[3] بسنده عن أبي مسعود الأنصاري قال : « أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ؟ قال فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : قولوا اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم » .

---

(١) أَرَمْتَ : بفتح الهمزة والراء وسكون الميم ، وروى بضم الهمزة وكسر الراء : أي بليت .

(٢) صحيح : ابن ماجة في الجنائز (١/٥٢٤) وأبو داود في الصلاة (٣/٣٧٠) وسكت عليه . وأحمد في الفتح الرباني (٩/٦) وصححه الحاكم في الجمعة (١/٢٧٨) ووافقه الذهبي .

(٣) مسلم : في الصلاة (٤/١٢٣) .

قيام الليل

أما الآيات فقوله تعالى[٤] « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه . . » . وقوله عز وجلّ[٥]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَـٰماً ﴾ .

أما الأخبار : قوله ﷺ « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » متفق عليه[٦] من حديث أبي هريرة . وثبت في الصحيحين[١] وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يصلي ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة ، يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة » .

وفي الخبر إنه ذكر عنده الرجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال ﷺ : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه » ، متفق عليه[٢] من حديث ابن مسعود . (رضي الله عنه) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « يعقد الشيطان

---

(٤) المزمل آية (٢٠).

(٥) الفرقان آية (٦٤).

(٦) بل انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري فرواه في الصيام (٥٤/٨).

(١) البخاري في الوتر (٢/٤٧٨) ومسلم في المسافرين (٦/١٦).

(٢) البخاري في التهجد (٣/٢٨) ومسلم في المسافرين (٦/٦٣).

على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فإذا استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلّا أصبح خبيث النفس كسلان » متفق عليه[3] .

الآثار : كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويّ كدوي النحل حتى يصبح .

قيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجهاً ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

وقال : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل .

وقال رجل لأحد الصالحين : لا أستطيع قيام الليل فصف لي دواءاً ، فقال : لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل .

ويروى عن سفيان الثوري أنه قال : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم هجوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال أبو سليمان : أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا .

وقال ابن المنكدر : ما بقي من لذات الدنيا إلّا ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الأخوان ، وصلاة الجماعة .

---

(٣) البخاري في التهجد (٣/٢٤) ومسلم في المسافرين (٦/٦٥).

الزهد في الدنيا وبيان حقارتها

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس ، فقال : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة[1] .

وهذا الحديث يدل على أن الله يحب الزاهدين في الدنيا ، وقالوا : إذا كانت محبة الله هي أفضل المقامات فالزهد في الدنيا هو أفضل الأحوال .

« **والزهد** » : هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، وأما العلم المثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ . فمن عرف أن ما عند الله باقٍ ، وأن الآخرة خير وأبقى كما أن الجوهر خير وأبقى من الثلج . فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الإنقراض والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له ، وبقدر اليقين

---

(١) حسن: قال النووي في الرياض حديث رقم (٤٧٥): حديث حسن رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة قال الصنعاني في سبل السلام (٤/١٧٧): وقد حسن النووي الحديث كأنه لشواهده ا هـ وقال الحافظ في بلوغ المرام: اسنده حسن ا هـ. هو عند ابن ماجة (٢/١٣٧٣) في الزهد.

بالتفاوت بـين الدنيـا والآخرة تقـوى الرغبـة في البيع ، وقـد مدح القـرآن الزهد في الدنيا وذمّ الرغبة فيها ؛ فقال تعالى[1] :

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

وقال تعالـى[2] :

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ .

وقـال[3] :

﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾ .

والأحاديث في ذم الدنيا وبيان حقارتها عند الله كثيرة جداً .

ففي صحيح مسلم[4] : عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ « مرّ بالسوق والناس كَنَفَتَيْه ، فمـرّ بجدي أسـكّ ميت فتناولـه فأخـذ بأذنـه ، فقال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم فقـالوا : مـا نحب أنه لنـا بشيء وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم قالـوا : والله لو كـان حياً كـان عيباً فيـه لأنـه أسكّ فكيف وهـو ميت ؟ فقال والله للدنيـا أهـون عـلى الله من هـذا عليكم » .

وفيـه[1] أيضاً عن المستـورد بن شدّاد الفهْـري عن النبي ﷺ قال : « ما الدنيـا في الآخرة إلاّ مثـل ما يجعـل أحدكم اصبعـه في اليمّ فلينظر بم يرجع » . وخرّج الترمذي[2] من حديث بن سهـل بن سعد عن النبي ﷺ

(١) سورة الأعلى آية (١٦ ، ١٧).
(٢) الأنفال آية (٦٧).
(٣) الرعد آية (٢٦).
(٤) مسلم في الزهد (١٨/٩٣).
(١) مسلم في الجنة ونعيمها (١٧/١٩١).
(٢) صحيح: الترمذي في الزهد (٦/٦١١) وقال صحيح غريب.

قال : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » . وصححه .

فالزهد : هو الإعراض عن الشيء لاستقلاله ، واحتقاره ، وارتفاع الهمة عنه ، يقال شيء زهيد أي قليل حقير .

قال يونس بن ميسرة : « ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء وأن يكون مادحك وذامّك في الحق سواء » .

ففَسَّر الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح ، ولهذا كان أبو سليمان يقول : لا تشهد لأحد بالزهد .

أحدها : أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه . وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته ، قيل لأبي حازم الزاهد : ما مالك ؟ ، قال « مالان لا أخشى معهما الفقر : الثقة بالله ، واليأس مما في أيدي الناس » . « وقيل له أما تخاف الفقر ؟ ، فقال : أنا أخاف الفقر ومولاي له ما في السموات ، وما في الأرض ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ؟ » .

قال الفضيل : أصل الزهد : الرضى عن الله عز وجلّ ، وقال : القنوع هو الزاهد ، وهو الغنى ؛ فمن حقق اليقين ، وثق بالله في أموره كلها ، ورضي بتدبيره له ، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاءاً وخوفاً ، ووضعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة ، ومن كان كذلك كان زاهداً حقاً ، وكان من أغنى الناس ؛ وإن لم يكن له شيء من الدنيا . كما قال عمّار (رضي الله عنه) : « كفى بالموت واعظاً ، وكفى باليقين غنى ، وكفى بالعبادة شغلاً » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « اليقين أن لا ترضى الناس

بسخط الله ، ولا تحسد أحداً على رزق الله ، ولا تلم أحداً على مالم يؤتك الله ، فإن رزْقَ الله لا يسوقه حرصُ حريص ، ولا يرده كراهيةُ كاره ، فإن الله بقسطه ، وعلمه ، وحكمته ، جعل الروح والفرح في اليقين والرضى ، وجعل الهمّ والحزن في السخط والشّك » .

الثاني : أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة في دنياه : من ذهاب مال ، أو ولد ، أو غير ذلك ، أرغب في ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقى له . وهذا أيضاً ينشأ من كمال اليقين .

قال علي (كرّم الله وجهه) : من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات . وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس .

الثالث : أن يستوي عند العبد حامده وذامه في الحق . وإذا عظمت الدنيا في قلب العبد اختار المدح وكره الذم ، وربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم ، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح .

فمن استوى عنده حامده وذامه في الحق دل على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه وامتلائه من محبة الحق ، وما فيه رضى مولاه ، كما قال ابن مسعود : (رضي الله عنه) : « اليقين أن لا ترضى الناس بسخط الله » .

وقد مدح الله عز وجلّ الذين يجاهدون في سبيله ، ولا يخافون لومة لائم . وقد ورد عن السلف روايات أخرى في تفسير الزهد .

قال الحسن : « الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال هو أزهد مني » . وسئل بعضهم ـ أظنه الإمام أحمد ـ عمن معه مال هل يكون زاهداً ؟ ، قال : « إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه فهو زاهد » .

وقال إبراهيم بن أدهم : « الزهد ثلاثة أقسام : فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة .

فأما الزهد الفرض : فالزهد في الحرام ، **والزهد الفضل** : فالزهد في الحلال ، **والزهد السلامة** : فالزهد في الشبهات » .

وكا من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو زاهد أيضاً ، ولكن في الآخرة .

قال رجل لأحد الصالحين : ما رأيت أزهد منك ، قال : أنت أزهد منّي لقد زهدت في دنيا لا بقاء لها ولا وفاء ، وأنت زهدت في الآخرة ، فمن أزهد منك .

ولكن العادة جارية على تخصيص اسم الزهد على الزهد في الدنيا والزهد يكون فيها هو مقدور عليه ولذا قيل لابن المبارك[1] : يا زاهد قال : « الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففيها ذا زهدت » .

قال الحسن البصري : « أدركت أقواماً وصحبت طوائف ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب ؛ كان أحدهم يعيش سنة أو ستين سنة لم يُطْوَلَه ثوبٌ ، ولم يُنصب له قدرٌ ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً ، ولا أمر من بيته بصنعةِ طعام قط ، فإذا كان الليل ، فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوهَهم ، تجري دموعُهم على خُدودهم ، يُناجون ربَهم في فَكاك رقابهم ؛ كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ،

---

(١) وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مالك بن دينار قال : الناس يقولون مالك بن دينار زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها (٥/٢٥٧) اهـ. فلا أدري أوقع لابن المبارك مثله أم لا؟!

وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها ، فلم يزالوا على ذلك ، ووالله : ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلاّ بالمغفرة ؛ رحمة الله عليهم ورضوانه » .

درجات الزهد

الدرجة الأولى : أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ ، وقلبه إليها مائل ، ونفسه إليها ملتفتة ، ولكن يجاهدها ويكفها ، . . وهذا يسمى متزهد .

الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها ، بالإضافة إلى ما طمع فيه ، ولكنه يرى زهده ، ويلتفت إليه ، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين .

الدرجة الثالثة : أن يزهد في الدنيا طوعاً ، ويزهد في زهده ، فلا يرى أنه ترك شيئاً ، فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جوهرةً .

ويمثل صاحب هذه الدرجة بمن منعه مِن الدخول على الملك كلبٌ على بابه ، فألقى إليه لقمةً من خبز فشغله بها ؛ ودَخَل على الملك ، ونال القرب منه فالشيطانُ كلبٌ على باب الله عز وجلّ ، يمنع الناس مِن الدخول ، مع أن الباب مفتوحٌ ، والحجابَ مرفوعٌ ، والدنيا كلقمة فمن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت إليها .

احوال النفس ومحاسبتها

اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم ـ على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الربّ، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلّا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها، والظفر بها.

فإن الناس على قسمين: قسمٍ ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعاً لها تحت أوامرها. وقسمٍ ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعاً لهم، منقادةً لأوامرهم.

قال بعض العارفين: ـ انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال الله تعالى: (1)

﴿وَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾

والنفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والربّ يدعو عبدَه إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلبُ بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف الله سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، واللوامة، والأمارة

---

(1) النازعات آية (٣٧ : ٤٠).

بالسوء، فاختلف الناس: هل النفس واحدة وهـذه أوصاف لهـا، أم للعبد ثلاثة أنفس.

فالأول قول الفقهاء والمفسرين، والثاني قول كثير من أهل التصوف، والتحقيق أنه لا نزاع بين الفريقين، فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاثة باعتبار صفاتها.

النفس المطمئنة :

إذا سكنت النفس إلى الله عز وجلّ واطمأنت بذكره ، وأنابت إليه ، واشتاقت إلى لقائـه ، وأنست بقربـه ؛ فهي مطمئـنـة ، وهي التي يقال لهـا عند الوفاة[1] .

﴿ يَـٰأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

قال ابن عباس (رضي الله عنه): المطمئنة المصدقة، وقال قتادة: هو المؤمن اطمـأنت نفسه إلى مـا وعد الله، وصـاحبها يـطمئن في باب معـرفة أسمائه وصفـاته إلى خبـره الذي أخبـر به عن نفسـه وأخبر بـه عن رسولـه - ﷺ -، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعـده من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً. ثم يطمئن إلى قدر الله عـز وجل فيسلم له ويرضى، فلا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه؛ فلا ييأس على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصـل إليه، وقبل أن يخلق؛ قال تعالى[1]:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَمَن يؤْمِنْ بِٱللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾.

قـال غير واحـد من السلف هو العبـد تصيبه المصيبـة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

وأمـا طمأنينـة الإحسان فهي الـطمأنينـة إلى أمره امتثـالا وإخلاصـاً

---

(١) الفجر آية (٢٧، ٢٨).

(١) التغابن آية ١١.

ونصحاً، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى، ولا تقليداً، ولا يساكن شبهة تعارض خبره، ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرّت به أنزلها منزلة الوساوس التي لإن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال[٢] النبي ﷺ: «صريح الإيمان»، وكذلك يطمئن من قلق المعصية، وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها.

فإذا اطمأن من الشكّ إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، فعند ذلك تكون نفسه مطمئنة.

وأصل ذلك كله هي اليقظة؛ التي كشفت عن قلبه سَنَةَ الغفلة، وأضاءت له قصور الجنة، فصاح قائلاً:

ألا يا نفسُ ويحك ساعدين بسعي منكِ في ظلم الليالي
لعلكِ في القيامة أن تفوزي بطيب العيشِ في تلك العلالي

فرأى في ضوء هذه اليقظة ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه من حَين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، وقلة وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً[١]:

﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ ﴾

فاستقبل بقية عمره مستدركاً ما فات، محيياً ما أمات، مستقبلاً ما

---

(٢) ومناسبة ذلك ما رواه مسلم في كتاب الإيمان (٢/١٥٣) عن أبي هريرة قال: جاءنا سٌ من أصحاب النبي ﷺ فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان.

(١) الآية (٥٦) من سورة الزمر.

تقدم له من العثرات، منتهزاً فرصة الإمكان ـ التي إن فاتت فاته جميع الخيرات ـ، ثم يلحظ في نور تلك اليقظة ونور نعمة ربه عليه، ويرى أنه آيسٌ من حصرها وإحصائها، عاجزٌ عن اداء حقها، ويرى في تلك اليقظة عيوب نفسه، وآفات عمله، وما تقدم له من الجنايات، والإساءات، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فتنكسر نفسه، وتخشع جوارحه، ويسير إلى الله ناكسَ الرأسِ بين مشاهدة نعمه، ومطالعة جناياته، وعيوب نفسه، ويرى أيضاً في ضوء تلك اليقظة عزةَ وقته، وخطره، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به فيما لا يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة، وفي حفظه الربح والسعادة.

فهذه آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي ينشأ منها سفرها إلى الله والدارِ الآخرة.

النفس اللوامة :

قالت طائفة : هي التي لا تثبت على حال واحدة ، فهي كثيرة التقلب والتلون ، فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتطيع وتتقي .

وقالت أخرى: هي نفس المؤمن، قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلاّ يلوم نفسه دائماً يقول: ما أردت هذا؟ لم فعلت هذا؟ كان هذا أولى من هذا؟ أو نحو هذا الكلام.

وقالت أخرى: اللوم يوم القيامة؛ فإن كلَّ أحدٍ يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته، وإن كان محسناً على تقصيره.

يقول الإمام ابن القيم : وهذا كله حق.

واللوامة نوعان: لوامة ملومة، ولوامة غير ملومة.

ـ **اللوامة الملومة**: ـ هي النفس الجاهلة، الظالمة، التي يلومها الله وملائكته.

ـ **اللوامة غير الملومة:** ـ وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله ـ مع بذله جهده ـ، فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها من طاعة الله. واحتملت ملام اللوام في مرضاته، فلا تأخذها في الله لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله. وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها، ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عز وجلّ.

النفس الأمارة بالسوء:

وهذه النفس المذمومة، فإنها تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها، فما تخلَّص أحد من شرها إلاّ بتوفيق الله، كما قال تعالى[1] حاكياً عن امرأة العزيز:

﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقال عز وجل[2]:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾

يعلمهم خطبة الحاجة «إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»[3]. فالشرُ كامنٌ في النفس، وهو يوجب سيئات الأعمال، فإذا خلَّى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها، وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه الله وأعانه نجا من ذلك كله.

---

(١) يوسف آية (٥٣).

(٢) النور آية (٢١).

(٣) صحيح: أخرجه ابو داود في النكاح (٦/١٥٣) وابن ماجه في النكاح ايضا واللفظ له (١/٦٠٩). واسناده صحيح متصل من طريق أبي الأحوص عن عبد الله، قاله الشيخ شاكر في تحقيق المسند (٣٧٢١).

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وخلاصة القول: إن النفس واحدة تكون: أمارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحها.

والنفس المطمئنة قرينها المَلَك، يليها، ويسددها، ويقذف فيها الحقَ، ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها عن الباطل، ويزهدها فيه، ويريها قبحَ صورتِهِ؛ وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من عند النفس المطمئنة. وأما النفس الأمارة فجُعل الشيطانُ قرينُها، وصاحبُها الذي يليها، فهو يَعِدُها، ويمنيها، ويقذف فيها الباطلَ، ويأمرها بالسوء، ويزينه لها، ويطيل في الأمل، ويريها الباطل في صُورة تقبلها وتستحسنها.

فالنفس المطمئنة والملك يقتضيان من النفس المطمئنة: التوحيد، والإحسان، والبر، والتقوى، والتوكل، والتوبة، والإنابة، والإقبال على الله، وقصر الأمل، والاستعداد للموت وما بعده.

والشيطان وجنده من الكفرة يقتضيان من النفس الأمّارة ضد ذلك. وأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمّارة، فلو وصل منها عمل واحد لنجا به العبد، ولكن أبت الأمّارة والشيطان أن يدعا له عملا واحداً يصل إلى الله، كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه: «والله لو أعلم أن لي عملاً واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يَقْدُمُ على أهله»، وقال عبد الله بن عُمَر (رضي الله عنه): «لو أعلم أن الله قبل مني سجدةً واحدةً لم يكن غائبٌ أحبَّ إليّ من الموت».

وقد انتصبت الأمّارة في مقابلة المطمئنة، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تُفسرَه عليها، وتريَه حقيقةَ الجهادِ ظمن صورةِ تقتيلِ النفس، وتنكح الزوجة، ويصير الأولاد يتامى، ويقسم المال، وتريه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه، وخلو اليد منه، واحتياجه إلى الناس، ومساواته للفقير.

محاسبة النفس

وعلاج استيلاء النفس الأمارة على قلب المؤمن محاسبتها ومخالفتها، كما روى الإمام أحمد[1]: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت؛ والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله». ودان نفسه: ـ أي حاسبها.

وذكر الإمام أحمد[2] عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر «يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية»».

وقال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه؛ يحاسب نفسه لله؛ وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا؛ وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة.

---

(١) ضعيف: اسناده ضعيف من أجل أبي بكر بن أبي مريم، أخرجه الترمذي وغيره في صفة القيامة (٧/١٥٥) وحسنه؛ والحاكم في المستدرك كتاب الإيمان (١/٥٧) وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: «لا والله أبو بكر بن أبي مريم واهٍ». اهـ.

(٢) رواه أحمد في الزهد ص ،ظط وأخرج نحوه الترمذي موقوفاً أيضا على عمر بن الخطاب وأورده بصيغة التحريص بعد هذا الحديث (٧/١٥٦). وكذلك أخرجه البغوي في شرح السنة (١٤/٣٠٩) في الرقاق. وأبو نعيم في الحلية (١١٥٢). وعزاه ابن كثير في التفسير سورة الحاقة آية (١٨) (٦/١٠٣) لابن ابي الدنيا.

إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن الله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا! مالي ولهذا؟! والله لا أعود إلى هذا أبداً. إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى من فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كلّه»[1].

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا، ألستِ صاحبة كذا، ثم ذمّها، ثم خَطَمَها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجلّ؛ فكان لها قائداً.

فحق على الحازم المؤمن بالله وباليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييقِ عليها من حركاتها وسكناتها، وخطراتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسرانٌ عظيم، لا يسمح بمثله إلّا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن. قال تعالى[1]:

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾

ومحاسبة النفس نوعان: ـ نوع من قبل العمل ونوع بعده.

أما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانُه على تركه.

---

(١) أنظر البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٩/٢٧٢)، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٢/١٥٧).

(١) آل عمران آية (٣٠).

قال الحسن رحمه الله[٢]: «رحم الله عبداً وقف عند همه؛ فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره تأخّر».

وشرح بعضهم هذا فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال، وهمّ به العبد، وقف أولاً ونظر: هل ذلك العمل مقدور عليه، أو غير مقدور، ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه، وإن كان مقدوراً عليه وقف وقفة أخرى، ونظر: هل فعله خير له من تركه، أم تركه خير له من فعله، فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجلّ وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق، فإن كان الثاني لم يقدم، وإن أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى: ونظر هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاج إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبي ـ ﷺ ـ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار؛ وإن وجده معاناً عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله، ولا يفوت النجاح إلاّ من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلاّ فمع اجتماعها لا يفوته النجاح، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

---

(٢) ويؤيده ما في صحيح مسلم في كتاب الإيمان (٢/١٨): من حديث أبي هريرة مرفوعاً «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» قال النووي: معناه أنه إذا أراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيراً محققاً يثابُ عليه واجباً أو مندوباً فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خيرٌ ثياب عليه فيمسك عن الكلام سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين. . . ثم قال: وقد أخذ الإمام الشافعي معنى الحديث فقال إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلم وإن ظهر له فيه ضرر أو شكّ فيه أمسك. «ا هـ».

والنوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حقِّ الله تعالى؛ فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة ستة أمور وهي:

الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول ﷺ، وشهود مشهد الإحسان، وشهود مِنّةَ الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله. فيحاسب نفسه هل وفّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركْه خيراً له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح لِمَ فعله، وهل أراد به الله تعالى والدارَ الآخرة؛ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجِلَها؛ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وآخر ما عليه الإهمال، وترك المحاسبة، والإسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور، يغمض الواحد عينيه عن العواقب ويتكل على العفو؛ فيهمل محاسبةَ نفسه والنظرَ في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعةُ الذنوب، وأَنِسَ بها وعسر عليه فِطَامُها.

وجماعُ ذلك أن يحاسِبَ نفسَه أولاً على الفرائض فإن تذكَّر فيها نقصاً تداركَه إما بقضاءٍ أو إصلاحٍ، ثم يحاسبُها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبةِ والاستغفارِ والحسناتِ الماحيةِ. ثم يحاسب نفسه على الغفلةِ، فإن كان قد غفل عما خُلِق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت به رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه؛ ماذا أردتُ بهذا، ولِمَ فعلته، ولمن فعلتُه، وعلى أي وجه فعلتُه، ويعلم أنه لا بدَّ أن يُنْشَر لكل حركةٍ وكلمةٍ ديوانان: لمن

فعلتَـه؟ وكيف فعلتَه؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة قال الله تعالى[1]:

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾.

فإذا سُئل الصادقون عن صدقهم، وحوسبوا على صدقهم، فما الظنُّ بالكاذبين.

---

(١) الأحزاب آية (٨).

فوائد محاسبة النفس

١ ـ الإطلاع على عيوب نفسه: ومن لم يطلع على عيوب نفسه لم يمكنه إزالته، قال يونس بن عبيد: «إني لأجد مائة خَصْلة من خِصَال الخير ما أعلم أن فن نفسي منها واحدةً».

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب رِيحٌ ما قدر أحدٌ أن يجلسَ إليّ» وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء[٢]: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس من جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون أشدّ لها مقتاً».

٢ ـ أن يعرف حق الله تعالى عليه؛ فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤ ية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والإنكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلاّ بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

---

(٢) في الزهد ص (١٣٤). وفي اطلاقه العزو لأحمد تجوز لان المراد عند الاطلاق مسنده لا زهده.

الصبر

إن الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً غالباً لا يهزم، وحصناً حصيناً لا يهدم؛ فهو والنصر أخوان شقيقان، وقد مدح الله عز وجلّ في كتابه الصابرين، وأخبر أنه يونيهم أجرهم بغير حساب، وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز، وفتحه المبين، فقال تعالى: [1]

﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطةً بالصبر واليقين فقال تعالى[2] ـ وبقوله اهتدى المهتدون ـ :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

وأخبر تعالى أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين؛ فقال تعالى: [3]

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾

---

(١) الأنفال آية (٤٦).

(٢) السجدة آية (٢٤).

(٣) آية (١٢٦).

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط، فقال تعالى: [(١)]

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾.

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى، فقال تعالى: [(٢)]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى: [(٣)]

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

وبشّر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون: فقال تعالى: [(٤)]

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَ ٰجِعُونَ . أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَ ٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾.

وجعل الفوزَ بالجنة، والنجاةَ من النار، لا يحظى به إلّا الصابرون، فقال عز وجلّ: [(٥)]

---

(١) آل عمران آية (١٢٠).
(٢) آل عمران آية (٢٠٠).
(٣) آل عمران آية (١٤٦).
(٤) البقرة آية (١٥٥/ ١٥٧).
(٥) المؤمنون آية (١١١).

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

وخصّ في الإنتفاع بآياته أهلَ الصبر، وأهلَ الشكر، تمييزاً لهم بهذا الحظ الموفور، فقال[٦] في أربع آيات من كتابه جل وعلا:

﴿ إِنَّ فِي ذَ ٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

والصبر آخية المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساقُ إيمانِه التي لا اعتماد له إلّا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل من غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف؛ فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجهه خَسِر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منها إلّا بالصفقة الخاسرةِ، فخير عيسى أدركه السعداءُ بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم وساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم «وذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

ولما كان الإيمان نصفين: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر؛ كان حقيقياً على من نصح نفسَه، وأحب نجاتها، وآثر سعادتَها، أن لا يهمل هذين الأصلين، وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين؛ ليجعلَه الله يوم لقائه مع خيرِ الفريقين.

---

(٦) إبراهيم آية (٥). ولقمان آية (٣١)، وسبأ آية (١٩)، والشورى آية (٣٣).

مَعنى الصَبر وحقيقته

الصبر لغة: هو المنع والحبس، وشرعا فهو حبس النفس عن الجذع واللسان على التسكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، ونحوهما.

وقيل: هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

سئل عنه الجنيد فقال: «تجرع المرارة من غير تعبُّس».

وقال ذو النون المصري: «هو التباعد عن المخالفات، والسكونُ عند تجرُع غُصَصَ[1] البلية، وإظهارُ الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة».

وقيل: «الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب».

وقيل: «هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى».

ورأى أحد الصالحين رجلاً يشتكي إلى أخيه فقال له: يا هذا، والله

---

(١) غصص: بضم المعجمة وفتح المهملتين؛ جمع غُصَّة: وهي ما اعترض الحلق من طعام أو شراب.

ما زدتَ على أن شكوتَ من يرحمك إلى مَن لا يرحمك.

وقيل في ذلك:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكي الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ

والشكوى نوعان: شكوى إلى الله عز وجلّ وهذه لا تنافي الصبر، كقول يعقوب[1] عليه السلام:

﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

مع قوله:[2]

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

وقولِ[3] سيد الصابرين صلواتُ الله وسلامه عليه: «اللهّم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي...».

والنوع الثاني: شكوى المبتلي بلسان الحال أو المقال، فهذه لا تجامع الصبر بل تضادّه وتبطله.

وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر، كما قال النبي[4] ﷺ: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي».

ولا يناقض هذا قوله ﷺ[1]: «وما أُعطي أحدٌ عطائًا خيراً وأوسعَ

---

(١) يوسف آية ٨٦.

(٢) يوسف آية ٨٣.

(٣) ضعيف: قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٥): رواه الطبري وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة. وبقية رجاله ثقات.

(٤) ضعيف: وهو جزء من الحديث قبله.

(١) البخاري في الزكاة (٣/٣٣٥) ومسلم في الزكاة (٧/١٤٤) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنهما).

من الصبر». فإن هذا بعد نزول البلاء، فساحة الصبر أوسع الساحات، أما قبل نزوله فساحة العافية أوسع.

والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطامٌ ولا زمامٌ شردت في كل مذهب. وحُفِظَ مِن خُطَبِ الحجّاج: «إقرعوا هذه النفوسَ فإنها طلعة إلى كل سوء، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبرَ عن محارم الله أيسرُ من الصبر على عذابه».

والنفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، . . . فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره، ومن الناس من يصبر على قيامِ الليل ومشقةِ الصيام، ولا يصبر على نظرة محرمة ومنهم من يصبر على النظر والإلتفات إلى الصور، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد.

وقيل: الصبر شجاعة النفس، ومن ها هنا أخذ القائل قوله: «الشجاعة صبر ساعة». والصبر والجذع ضدّان، كما أخبر سبحانه وتعالى[1] عن أهل النار:

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾.

---

(١) إبراهيم آية (٢١).

اقسام الصبر باعتبار متعلقة

والصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأقسام هي التي قيل فيها:

«لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

والصبر أيضاً نوعان: إختياري واضطراري، والإختياري أكمل من الإضطراري، فإن الإضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز أعظم من صبره على ما ناله من أخوته لمّا ألقَوْه في الجب.

فالإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال لأنه يتقلب بين أمرٍ يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهيٍ يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدرٍ يجري عليه اتفاقاً، ونعمةٍ يجب شكر المنعم بها عليه واذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه؛ فالصبر لازم له إلى الممات.

وكل ما يَلْقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين: أحدهما يوافق هواه ومراده، والآخر يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كلٍ منهما، أما النوع الموافق لغرضه كالصحة، والجاه، والمال، فهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدهما: أن لا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر، والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهلَه.

والثاني: أن لا ينهمك في نيلها.

والثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها.

والرابع: أن يصبر عن صرفها من الحرام. قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلاّ الصدّيقون».

وقال عبد الرحمن بن عوف: ابتلينا بالضرّاء فصبرنا، وابتلينا بالسرّاء فلم نصبر!!؛ ولذلك يحذر الله عباده من فتنة المال، والآزواج، والأولاد، فقال تعالى[1]:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

أما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إما أن يرتبطَ باختيار العبد كالطاعات والمعاصي؛ أو لا يرتبط أَوْلُه باختياره كالمصائب، أو يرتبط أَوْلُه باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه.

فهاهنا ثلاثة أقسام:

«القسم الأول»: ما يرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما في الصلاة فلما فيها من الكسل وإيثار الراحة لا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب، ورين الذنب، والميل إلى الشهوات، ومخالطة أهل الغفلة.

وأما الزكاة فلما في طبع النفس من الشح والبخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعاً. ويحتاج العبد إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

(١) المنافقون آية ٩.

قبل الشروع في الطاعة؛ وذلك بتصحيح النية، والإخلاص في الطاعة، وحين الشروع في الطاعة؛ وذلك بالصبر على دواعي التقصير والتفريط، واستصحاب النية ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

والثالثة بعد الفراغ من الطاعة؛ وذلك بالصبر على ما يبطلها، فليس الشأن في الإتيان بالطاعة إنما الشأن في حفظها مما يبطلها، فيصبر عن رؤ يتها والعجبِ بها والتكبرِ، وكذلك يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سراً بينه وبين الله سبحانه؛ فيُكْتب في ديوان السر؛ فإن تحدث به نقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

أما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة.

«القسم الثاني»: ما لا يدخل تحت الإختيار، وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب، وهي إما أن تكون مما لا صنع لآدميّ فيه كالموت، والمرض، والثاني: ما أصابه من جهة آدمي كالسبِّ والضرب.

فالنوع الأول: للعبد فيه أربعة مقامات: مقام العجز، وهو الجذع والشكوى والثاني: مقام الصبر، والثالث: مقام الرضى، والرابع: مقام الشكر وهو بأن يشهد البليةَ نعمةً فيشكر المبتلي عليها.

وما أصابه من جهة الناس فله فيه هذه المقامات مضافاً إليها أربعةٌ أُخَر. الأول: مقام العفو. الثاني: مقام سلامة الصدر من إرادة التشفّي[١]. الثالث: مقام القَدر. الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء.

«القسم الثالث»: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكن منه لم يكن له اختيار، ولا حيلة في دفعه.

---

(١) التشفّي: ذهاب الغيظ يقال: اشتفى من عدوه: ـ أي بلغ ما يُذهب غيظه منه.

الأخبار الواردة في فضيلة الصبر

في صحيح مسلم[1]: عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله (إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلاّ أخلف الله له خيراً منها)، قالت: فلمّا مات أبو سلمة قلتُ: أيُ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسولَ الله ﷺ. . . الحديثَ.

وفي صحيح البخاري[2] من حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «يقول عز وجلّ ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلاّ الجنّة».

وفي الصحيحين[3] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «ما من مصيبة تصيب المؤمن إلاّ كفّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها».

---

(١) مسلم في الجنائز (٦/٢٢٠).

(٢) البخاري في الرقاق (١١/٢٤١).

(٣) البخاري في المرضي (١٠/١١١). ومسلم في البر والصلة (١٦/١٢٩) وليس هذا اللفظ لأحد منهما.

وفي المسند[٤] من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه): «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده، وفي ماله، وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة».

وفي صحيح البخاري[١]: من حديث خباب بن الأرث قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة ـ فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له من الأرض، فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه، وعظمه؛ ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله والذئبَ[٢] على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

الآثار: قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس». قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى:[٣]

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِئَايَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

لمّا أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤساءَ. ولمّا أرادوا قطع رجل عروة بن الزبير قالوا له: لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع، فقال: إنما ابتلاني، ليرى صبري أفأعارض أمره!.

---

(٤) صحيح: رواه أحمد في المسند (٢/٢٨٧) واللفظ له، والترمذي في الزهد (٧/٨٠) وقال حسن صحيح. والحاكم من الرقاق (٤/٢١٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ شاكر في المسند (٧٨٤٦).

(١) البخاري من الإكراه (١٢/٣١٥) وفي مناقب الأنصار (٧/١٦٤).

(٢) الذِّئبَ: هو بالنصب عطفاً على المستثنى منه لا المستثنى والتقدير: لا يخاف إلّا الذئب على غنمه. لأن مساق الحديث إنما هو للأمن من عدوان بعض الناس على بعض كما كانوا في الجاهلية، لا للأمن من عدوان الذئب فإن ذلك إنما يكون في آخر الزمان عند نزول عيسى عليه السلام.

(٣) السجدة آية ٢٤.

قال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً فانتزعها منه فعاض[1] مكانها الصبر إلاّ كان ما عوضه خيراً مما انتزعه».

ومرض أبو بكر الصديق فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب، فقال: «قد رآني الطبيب، قالوا: فأيُّ شيءٍ قال لك؟ فقال: قال: «إني فعّالٌ لما أريد».

وروى أن سعيد بن جبير قال: «الصبر: اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه، وقد يجذع العبد وهو يتجلّد لا يرى منه إلاّ الصبر».

فقوله اعتراف العبد لله بما أصابه منه كأنه تفسير لقوله «إنا لله»، فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد، وراجياً به ما عند الله كأنه تفسير لقوله «وإنا إليه راجعون»، أي نردّ إليه فيجزينا على صبرنا، ولا يضيع أجر المصيبة.

---

(١) عَاصَ: من العِوَضْ الذي هو البدل والخلف، والمعنى هنا فبدّل مكانها الصبر.

الشكر

الشكر: هو الثناء على المنعم بما أَوْلَاكَهُ من معروف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان ـ لا يكون شكراً إلّا بمجموعها ـ وهي: الإعتراف بالنعمة باطناً، والتحدث بها ظاهراً، والإستعانة بها على طاعة الله. فالشكر يتعلق بالقلب، واللسان، والجوارح؛ فالقلب للمعرفة والمحبّة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه.

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال تعالى: (١)

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾.

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنّته عليهم من بين عباده، فقال عزّ وجلّ: (٢)

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

---

(١) النساء آية (١٤٧).

(٢) الأنعام آية (٥٣).

وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى: [٣]

﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾.

وقال تعالى: [٤]

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾.

فعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره، وقد وقف الله سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة، كقوله تعالى: [١]

﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ ﴾.

وقال[٢] في المغفرة:

﴿ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

وقال[٣] في التوفة:

﴿ وَيَتُوبُ ٱللهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾.

وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكره كقوله تبارك وتعالى: [٤]

﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

---

(٣) الإنسان آية (٣).

(٤) إبراهيم آية (٧).

(١) من الآية (٢٨) من سورة التوبة.

(٢) المائدة من الآية (٤٠).

(٣) التوبة من الآية (١٥).

(٤) آل عمران من الآية (١٤٥).

ولما عرف عدو الله إبليس قدرَ مقام الشكر، وأنه من أجلّ المقامات وأعلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: [٥]

﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾.

ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال[٦] تعالى:

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

وثبت في الصحيحين[٧] عن النبي ﷺ «أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبداً شكوراً».

وثبت في المسند[٨] والترمذي أن النبي ﷺ قال لمعاذ «والله إني لأحبك؛ فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: «اللهمّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

والشكر قيد النعم وسبب المزيد، كما قال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا نعم الله بشكر الله». وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال لرجل من همذان: (إن النعمة موصولة بالشكر،

---

(٥) الأعراف الآية (١٧).

(٦) سبأ من الآية (١٣).

(٧) البخاري في التهجد (٣/١٤) ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٦٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٧) صحيح: رواه أحمد في المسند (٢٤٥، ٥/٢٤٧) والحاكم في معرفة الصحابة (٣/٢٧٣) وصححه ووافقه الذهبي. والنسائي في السهو (٣/٥٣). وصححه النووي في الرياض (٣٨٩) و(١٤٢٩) وفي الأذكار (١٧٤) وقال الحافظ في بلوغ المرام اسناده قوي (١/٢٠٠) سيل السلام. والحديث ليس عند الترمذي كما أشار المؤلف حفظه الله.

والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن؛ فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد).

وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم؛ فإن ذكرَها شكرٌ، وقد أمر الله نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال[1]:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

والله تعالى يحب أن يُرى أثـرُ نعمتِه على عبده؛ فإنَّ ذلك شكرها بلسان الحال[2].

وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحتَ يا أبا محمد: قال: «أصبحنا مغرقين في النعم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربُنا وهو غنيٌ عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون».

وقال شريح: «ما أصيب عبدٌ بمصيبة إلّا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت».

وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبي غنيمة: كيف أصبحتَ؟ قال: «أصبحتُ بين نعمتين لا أدري أيتُها أفضل: ذنوبٍ سترها الله عليّ فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودةٍ قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي».

---

(١) الضحى آية ١١.

(٢) ويؤيده ما ثبت عند الترمذي في الأدب (٨/١٠٦) وحسنه، والحاكم في الأطعمة (٤/١٣٥) وصححه ووافقه الذهبي: من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: إن الله يحب أن يُرى أثرُ نعمته على عبده. وصححه الشيخ شاكر (٦٧٠٨) في المسند.

وعن سفيان في قوله[1] تبارك وتعالى:

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر، وقال غير واحد: «كلّما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة».

قال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ فقال: إنْ رأيت بهما خيراً أعلنتَه، وإنْ رأيتَ بهما شراً سترتَه، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إنْ سمعتَ بهما خيراً وعيتَه، وإنْ سمعتَ بهما شراً دفعتَه، قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أنْ يكون أسفله طعاماً وأعلاه علماً. قال: فما شكر الفرْج؟ قال[2]:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾.

قال فما شكر الرِجْلَين؟ قال: إن علمت ميتاً تغبطه استعملت بهما عمله[3]، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله، وإما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر، والبرد، والثلج، والمطر.

وكتب بعض العلماء إلى أخٍ له: أما بعد فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا تحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر، أجميل ما يَسَّر، أم قبيح ما ستر؟!

---

(١) سورة (ن) آية (٤٤).

(٢) سورة المؤمنون آية (٥، ٦، ٧).

(٣) والمعنى إذا علمت أن هناك ميتاً من الصالحين ـ وأنت تتمنى أن تكون مثله ـ كان يستخدم رجله في الطاعة والخير فاعمل مثله.

التوكل

التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله عزّ وجلّ في استجلاب المصالح ودفع المضارّ في أمور الدنيا والآخرة.

قال الله عز وجلّ:[1]

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾.

فمَن حقق التقوى والتوكلَ؛ اكتفى بذلك في مصالح دينه ودنياه.

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو[2] خِماصا[3] وتروح[4] بِطاناً[5]» رواه الترمذي[6] وغيره، وقال الترمذي: حسن صحيح. قال أبو حاتم الرازي: هذا الحديث أصلٌ في التوكل وإنه

(١) سورة الطلاق آية (٢، ٣).

(٢) تغدو: تذهب أول النهار.

(٣) خماصاً: بكسر الخاء المعجمة، جمع خميص أي جياعاً.

(٤) تروح: ترجع آخر النهار.

(٥) بطاناً: بكر الموحدة، جمع بطين: وهو عظيم البطن والمرادُ شباعاً.

(٦) صحيح: الترمذي في الزهد (٧/٨) واللفظ له، والحاكم في الرقاق (٤/٣١٠) وصححه ووافقه الذهبي.

مِن أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزقُ.

وقال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الإيمان». وتحقيق التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدرات بها؛ وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب، مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، قال تعالى: (١)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ... الآية ﴾

قال سهل: «من طعن في الحركة يعني في السعي والكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان»؛ فالتوكلُ حالُ النبي ﷺ والكسبُ سنتُه فمن عمل على حاله فلا يتركنّ سنته.

وقيل: «عدم الأخذ في الأسباب طعن في التشريع، والاعتقاد في الأسباب طعن في التوحيد».

والأعمال التي يعملها العبد ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات التي أمر الله بها عبادَه، وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنّة، فهذا لا بد من فعله، مع التوكلِ على الله عز وجلّ فيه، والاستعانةِ به عليه، فإنه لا حولَ ولا قوةَ إلّا به، وما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصّر في شيءٍ مما وجب عليه مِن ذلك استحق العقوبةَ في الدنيا والآخرةِ شرعاً وقدراً.

قال يوسف بن أسباط: «يقال اعملْ عملَ رجلٍ لا ينجيه إلّا عملُه، وتوكلْ توكلَ رجلٍ لا يصيبه إلّا ما كُتب له».

القسم الثاني: ما أجرى الله العادة به في الدنيا وأمر عبادَه بتعاطيه

---

(١) سورة النساء آية (٧١).

كـالأكل عنـد الجـوع، والشـرب عنـد العـطش، والاسـتـظلال من الحـر، والتدفؤ من البرد، ونحو ذلك؛ فهذا أيضاً واجب على المرء تعاطي أسبابـه ومن قصّر فيه حتى تضـرر بتركـه ـ مع القـدرة على استعمـاله ـ فهـو مفرط يستحق العقوبة.

القسم الثالث: ما أجرى الله العادةَ به في الدنيـا في الأعم الأغلب، وقد يَخرق العادةَ في ذلك لمن شاء مِن عباده وهي أنواع: كالأدوية مثلاً وقد اختلف العلماء: هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تـركه لمن حقق التوكل على الله؟.

فيه قولان مشهوران. وظاهر كلام الإمام أحمد أن التـوكلَ لمن قَـوِي عليـه أفضلُ لمـا صحّ[1] عن النبي ﷺ أنـه قال: «يـدخـل الجنـةَ من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ثم قـال: هم الذين لا يتـطيرون ولا يستـرقون[2] ولا يكتوون[3] وعلى ربهم يتوكلون».

ومن رجح التداوي قال: إنه حال النبي ﷺ الذي كان يداوم عليـه ـ وهـو لا يفعل إلاّ الأفضـل ـ وحمل الحـديث على الـرقي المكـروهـة، التي خيشى منها الشرك، بدليل أنه قرنها بالكي والطيرة وكلاهما مكروه.

قـال مجـاهـد، وعكـرمـة، والنخعي، وغـير واحـد من السلف: لا يـرخص في ترك السبب بـالكليـة إلاّ لمن انقـطع قلبـه عن الاستشـراق إلى المخلوقين بالكلية.

وسئل إسحق بن راهويه: هل للرجل أن يدخـل المغازة بغـير زاد؟، فقال: إن كان الرجل مثل عبد الله بن جبير فله أن يدخل المغازة بغير زاد، وإلاّ لم يكن له أن يدخل.

---

(١) البخاري في الرقاق (١١/٣٠٥) من حديث ابن عبـاس، ومسلم في الايمان (٣/٨٩) من حديث عمران بن حصين.

(٢) الاسترقاء: طلب الرقية.

(٣) الاكتواء: استعمال الكي في البدن وهو إحراق الجلد بحديدة محماة.

محبّة الله عزّ وجلّ

المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلاّ وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها كالشوق، والأنس، والرضى، ولا قبل المحبة مقام إلاّ وهو مقدمةٌ من مقدماتها كالتوبة، والصبر، والزهد، وغيرها.

وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها، وأعلاها، وأجلها، محبة من جبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تأليهه، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة، والإجلال، والتعظيم، والذل له، والخضوع، والتعبد. والعبادة لا تصلح إلاّ له وحده ـ والعبادة: هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل.

والله تعالى يُحَبّ لذاته مِن جميع الوجوه، وما سواه فإنما يُحب تبعاً لمحبته، وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع الرسل؛ وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم؛ فإن القلوب متطورة مجبولة على محبة مَن أنعم عليها، وأحسن إليها، فكيف بمن كل الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى[1]:

(١) سورة النحل آية ٥٣.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ ﴾.

وما تعرف به إلى عبارة من أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

قال تعالى:[٢]

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾

وقال تعالى:[٣]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

وقد أقسم النبي ﷺ إنه «لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين» الحديث متفق عليه[١] من حديث أنس.

وقال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «لا حتى أكون أحب إليك من نفسك» متفق عليه[٢] أي لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا[٣] في المحبة ولوازمها، أفليس الربّ جل جلاله أولى بمحبته وعبادته من أنفسنا؟

وكل ما منه إلى عبده يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره؛ فعطاؤه

---

(٢) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٣) سورة المائدة آية ٥٤.

(١) البخاري في الإيمان (١/٥٨) ومسلم في الايمان أيضاً (٢/١٥).

(٢) البخاري في الايمان والنذور (١١/٥٢٣) من حديث عبد الله بن هشام. وليس هو عند مسلم.

((٣) كما قال تعالى في سورة الأحزاب آية (٦) «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم... الآية».

ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه، وبره ورحمته وإحسانه وستره، وعفوه وحلمه، وصبره على عبده، وإجابته لدعائه، وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته، من غير حاجة منه إليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه؛ كل ذلك داعٍ للقلوب إلى تأليهه ومحبته، فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته؟

فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي، وهو فقير إليه - فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه بقطع إحسان ربه عنه.

وأيضاً فكل من تحبه مِن الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه، وغرضه منك، والله سبحانه وتعالى يريدك لك.

وأيضاً فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك، ولا بد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه؛ فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً.

وأيضاً فهو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة، فمَن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته، وبذل الجهد في مرضاته.

وأيضاً فَمَطَالِبُك - بل مطالب الخلق كلهم جميعاً - لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، أعطى عبدَه قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، يسأله مَن

في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن، لا يشغله سمعٌ عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحين، بل يحب الملحين في الدعاء، ويحب أن يُسأل، ويغضب إذا لم يُسأل، ويستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى؛ فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليه معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه[1]، وقال: «من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلاّ هو، ولا يجيب الدعوات ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟

فهو أحق مَن ذُكر، وأحق من شُكر، وأحق من عُبد، وأحق من حُمد، وأنصر من ابتغى، وأرأف من ملك، وأجود من سُأل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرجم، وأكرم من قُصد، وأعز من التُجيء إليه، وأكفى من تُوكِل عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها؛ وهو الملك لا شريك له، والفرد لا ندّ له، كل شيء هالكٌ إلاّ وجههُ، لن يُطاع إلاّ بإذنه، ولن يُعصى إلاّ بعلمه، يُطاع فيَشكر، وبتوفيقه ونعمته أُطِيعَ، ويُعصى فيعفو ويغفر وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجل حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط؛ حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه

(١) وشاهده حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في «المسافرين وقصرها» (٦/٣٦) أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له».

ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلّت الفِطَر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ومحبة الله عز وجلّ هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذةٌ ولا نعيمٌ ولا فلاحٌ ولا حياةٌ إلّا بها؛ وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورَها، والأُذُن إذا فقدت سمعها، بل فساد القلب ـ إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق ـ أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلّا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

الآثار: ـ قال فتح الموصلي: «المحب لا يجد للدنيا لذة، ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين». ، وقال بعضهم: «المحب طائر القلب، كثير الذكر، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأباً وشوقاً».

وأنشد بعضهم:

وكن لربك ذا حب لتخدمه ... إن المحبين للأحباب خُدّامُ

وأوصت امرأة من السلف أولادَها فقالت لهم: «تعوّدوا حبّ الله وطاعته، فإن المتقين أُلفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحُهم من غيرها، فإن عرض لهم الملعون بمعصية مرّت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون».

وأنشد ابن المبارك:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس شنيعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيعُ

الرضا بقضاء الله

للعبد فيما يكره درجتان: درجة الرضى، ودرجة الصبر، فالرضا فضل مندوب إليه، والصبر واجب على المؤمن حتم.

وأهل الرضا تارة يلاحظون حكمة المبتلِي وخيرته لعبده في البلاء وأنه غير متهم في قضائه، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله فيستغرقون في مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصل إليه خواص أهل المعرفة والمحبة، حتى ربما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدورُه من حبيبهم.

والفرق بين الرضى والصبر: أن الصبر حبس النفس وكفها عن السخط ـ مع وجود الألم ـ وتمنى زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجذع، والرضا: انشراح الصدر، وسعته بالقضاء، وترك زوال الألم ـ وإن وجد الإحساس بالألم ـ لكن الرضى يخففه بما يباشر القلب من رُوح اليقين والمعرفة، وإذا قوى الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية.

خرّج الترمذي[1] من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي له الرضا، ومن سخط عليه السخط».

---

(١) حسن: رواه الترمذي في الزهد (٧/٧٧) وقال: هذا حديث حسن غريب اهـ وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٢/٤٥٩).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط».

وقال علقمة في قوله تعالى: [٢]

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾.

هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسور في قوله تعالى: [١]

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾

الرضا والقناعة.

ونظرَ علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى عديّ بن حاتم كئيباً؟، فقال: مالي أراك كئيباً حزيناً؟، فقال: وما يمنعني وقد قتل ابناي وفقئت عيني، فقال: يا عديّ مَن رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله.

دخل أبو الدرداء (رضي الله عنه) على رجل يموت (وهو يحمد الله) فقال أبو الدرداء: أصبت إن الله عز وجلّ إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به.

قال الحسن: ـ «من رضي بما قسم له وسِعه وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه، ولم يبارك له فيه». وقال عمر بن عبد العزيز: ـ «ما بقي لي

---

(٢) التغابن آية (١١).

(١) سورة النحل آية (٩٧).

سرور إلّا في مواقع القدر». وقيل له ما تشتهي؟ فقال: «ما يقضي الله عز وجلّ».

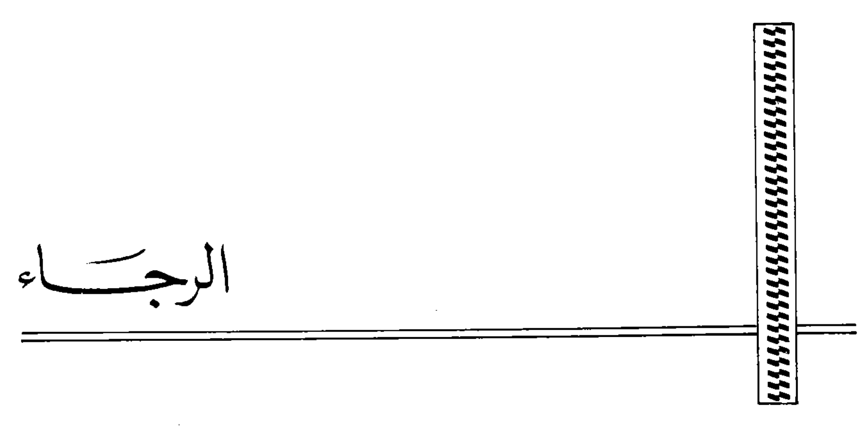
وقال عبد الواحد بن زيد: ـ «الرضا بابُ الله الأعظم، وجنةُ الدنيا، ومستراح العابدين».

وقال بعضهم: ـ «لن يُرى في الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى في كل حال، فمن وهب له الرضا فقد تبلغ أفضل الدرجات».

وأصبح أعرابيّ وقد مات له أباعر[2] كثيرة فقال: «لا والذي أنا عبد في عبادته: لولا شماتة أعداء ذوي إضٍ[1] ما سرّني أن أبلي مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يكن.

(٢) أباعر: جمع بعير، وهو ما صلح للركوب والحمل ن الابل ـ وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة.

(١) إضٍ: ـ المشقة. ذوي إض: ـ يعني ذوى حزن وحسد.



الرجـــاء

الرجاء: ـ

هو ارتياح القلب؛ لانتظار ما هو محبوب عنده.

وإذا كانت الأسباب غير موجودة فإسم الغرور والحمق عليه أصدق، وإذا كـان الأمـر مقـطوعـاً بـه فـلا يسمى رجـاء إذ لا يقـال أرجـو طلوع الشمس، ولكن يمكن أن يقال: أرجو نول المطر.

وقـد علم علماء القلوب: أن الـدنيـا مـزرعـة الأخـرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذور فيهـا، والطاعـات جاريـة مجرى تقليب الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها.

والقلب المستهـتر[٢] بالـدنيا المستغـرق بها كـالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ـ ويوم القيامة هـو الحصـاد، ولا يحصـد أحد إلّا مـا زرع، ولا ينمو بذر إلّا من بذر الايمان، وقلّما ينفع إيمان مـع خبث القلب، وسوء أخلاقه، وكـما لا ينمو بـذر في أرض سبخة فينبغي أن يقـاس رجاء العبـد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً طيباً غير عفن ولا مسوس ثم أمدّه بما يحتاج إليه في أوقاتـه، ثم نقى الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذرة أو يفسده، ثم جلس منتـظرا من فضل

(٢) استهتر بالشيء: ـ فتن به ولزمه غير مبالٍ بنقدٍ ولا موعظة.

الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غـايته، سمى انتظاره رجاءاً. وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا يصل إليهـا الماء، ولم يشتغـل بتعهد البـذر أصلاً ثم انتـظر الحصـاد منـه؛ سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاءاً.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبـابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختيـار العبد، وهـو فضل الله تعـالى بصرف القـواطع والمفسـدات، فالعبـد إذا بث بـذر الإيمـان، وسقاه بمـاء الطاعـات، وطهّر قلبـه من شوك الأخـلاق الرديئـة، وانتـظر من فضل الله تعـالى تثبيته عـلى ذلـك إلى المـوت، وحسن الخـاتمـة المفضية إلى المغفرة؛ كان انتظاره رجاءاً حقيقياً.

قال تعالى: (١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

يعني أولئـك يستحقون أن يـرجوا رحمـة الله، ومـا أراد بـه تخصيص وجـود الرجـاء لأن غيرهم أيضـاً قد يـرجـو ولكن خصّص بهم استحقـاق الرجاء.

ومن كان رجاؤه هاديـاً له إلى الطاعـة، زاجراً لـه عن المعصية، فهـو رجاء صحيح، ومن كان رجاؤه داعياً له إلى البطالة والإنهماك في المعاصي فهو غرور.

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه، **الثاني**: خوفه من فواته، **الثالث**: سعيـه في

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٨).

تحصيله وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانيّ، والرجاء شيء والأماني شيء آخر.

وكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات. وفي جامع الترمذي[1] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: ـ «من خاف أدلج؛ ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

(١) حسن: ـ الترمذي في صفة القيامة (٧/١٤٦) قال: حسن غريب، والحاكم في الرقاق (٤/٣٠٧) وصححه ووافقه الذهبي.

اخبار الرجاء

الآيات: ـ قوله سبحانه[2] وتعالى:

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّـذِينَ أَسْرَفُـواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَـطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وقوله عز وجلّ:[3]

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ . . . الآية ﴾.

الأحاديث: ـ ما ورد في صحيح[4] مسلم عنه ﷺ أنه قال: «لا يموت رجل مسلم إلّا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً».

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «قدِم على رسول الله ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فالزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار. قلنا: لا والله فقال: الله أرحم بعبده المؤمن من هذه على ولدها» متفق عليه[1].

---

(٢) سورة الزمر آية (٥٣).

(٣) سورة الرعد آية (٦).

(٤) مسلم في التوبة (١٧/٨٥) عن عمر بن عبد العزيز عن أبيه (رضي الله عنهما).

(١) البخاري في الأدب (١٠/٤٢٦)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٠).

وعن أبي هـريرة (رضي الله عنـه) عن رسـول الله ﷺ «إن الله كتب عــلى نفسـه بنفســه قبـل أن يخلق الخلق «إن رحمتي تغلب غضبي»» متفق عليه[٢].

وعن أنس (رضي الله عنـه) قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجـوتني غفرت لـك على مـا كـان منـك ولا أبـالي، يـا ابن آدم: لـو بلغت ذنـوبُـك عنـان السـماء ثم استغفـرتني غفرت لـك، يا ابن آدم: لـو أتيتني بقراب الأرض خـطايـا ثم لقيتني لا تشـرك بي شيئاً لأتيتـك بقرابهـا مغفرة». رواه التـرمذي[٣] وقـال حسن

(٢) البخـاري في بدء الـوحي (٦/٢٨٧) والتـوحيـد (٣٨٤، ١٣/٥٢٢)، ومسلم في التـوبـة (١٧/٦٨).

(٣) حسن: ـ الترمذي في الدعوات (٩/٥٢٤) وقال حسن غريب.

الآثار

قال يحيى بن معاذ: «من أعظم الإغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجلّ مع الإفراط».

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس[1]

---

(١) روي ابن حبان في روضة العقلاء (ص ٢٨٤) بإسناده إلى أبي العتاهية قال: دخلت على هارون أمير المؤمنين فلما بصر بي قال أبو العتاهية؟ قلت أبو العتاهية، قال: الذي يقول الشعر؟ قلت الذي يقول الشعر. قال: عظني بأبيات شعر وأوجز، فأنشدته:

لاتأ من الموت في طرف ولا نفس ... ولو تمنعت بالحجّاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة ... لكل مدَّرِع منا ومتَّرِس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها؟ ... إن السفينة لا تجري على اليبس

قال: فخرّ مغشياً عليه. أو كما قال «اهـ».

الخوف

الخوف: سوط الله يسوق به عباده إلى العلم والعمل لينالوا بهما القرب من الله تعالى. وهو عبارة عن: ـ تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي، ويقيدها بالطاعات.

والخوف القاصر يدعو إلى الغفلةِ والجرأةِ على الذنب، والإفراط في الخوف يدعو إلى اليأس والقنوط.

والخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله تعالى، واستغنائه، وأنه لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون؛ تكون قوة خوفه.

فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه. ولذلك قال ﷺ: «والله إنّي لأعلمهم بالله وأشدّهم له خَشية» رواه الشيخان[1].

---

(١) البخاري في الأدب (١٠/٥١٣) والاعتصام (١٣/٢٧٦)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٠٦) عن عائشة (رضي الله عنها).

وقيل للإمام الشعبي: يا عالم: قال: إنّما العالم من يخشى الله، وذلك لقول الله[٢] عز وجلّ:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾.

---

(٢) سورة فاطر آية (٢٨).

الخـائف

ولذلك قيل: ليس من يبكي ويمسح عينيه، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه. وقيل لذي النون المِصري: متى يكون العبد خائفاً؟ قال: «إذا نزّل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام».

وقال أبو القاسم الحكيم: ـ «من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه». وقال الفضيل ابن عياض: ـ «إذا قيل لك: هل تخاف الله فاسكت فإنك إن قلت نعم كذبت، وإن قلت لا كفرت».

والخوف يحرق الشهوات المحرمة فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمّاً. فتحرق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الخشوع والذلّة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهمّ بخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلاّ المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، والضِنّة[٣] بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات، والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخلب سبع ضار، لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلك، فيكون بظاهره وباطنه مشغول بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره، فهذا حال من غلبه الخوف.

(٣) الضِنّه: البخل.

فضيلة الخوف

جمع الله عز وجلّ لأهل الخوف الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان؛ فقال تعالى:[1]

﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾.

وقال تعالى:[2]

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾.

وقال عزّ وجلّ:[3]

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾.

وقد أمر الله عز وجلّ بالخوف، وجعله شرطاً في الإيمان؛ فقال عزّ وجلّ:[4]

﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون

---

(١) الأعراف آية (١٥٤).

(٢) فاطر آية (٢٨).

(٣) البينة آية (٨).

(٤) آل عمران آية (١٧٥).

ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه.

قال ﷺ: «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع» رواه الترمذي[5]، وقال حسن صحيح.

قال الفضيل بن عياض: «من خاف الله دلّه الخوف على كل خير».

قال الشبلي: ـ «ما خفت الله يوماً إلّا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة».

وقال يحيى بن معاذ: ـ «ما من مؤمن يعمل سيئة إلّا ويلحقها جنتان: خوف العقاب، ورجاء العفو».

---

(٥) صحيح: رواه الترمذي في فضائل الجهاد (٥/٢٦٠) وفي الزهد (٦/٦٠٠) وقال هذا حديث صحيح.

الاخبار في الخوف

قال الله تعالى: [1]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ . أُولَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾.

وقد روى الترمذي[2] في جامعه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون ويخافون ألّا يتقبل منهم، أولئك يسارِعون في الخيرات».

---

(١) سورة المؤمنون الآيات (من ٥٧ حتى ٦١).

(٢) صحيح: الترمذي في كتاب التفسير (٩/١٩)، والحاكم في التفسير ووافقه الذهبي (٢/٣٩٣) على تصحيحه. وقال العراقي في تخريج الاحياء (١٢/٢٣٤٣): بل منقطع بين عبد الرحمن بن سعيد بن وهب وبين عائشة: قال الترمذي: وروي عن عبد الرحمن بن سعيد عن ابي حازم عن ابي هريرة اهـ قال الزبيري في شرح الاحياء (٩/٣١٢): واللفظ الثاني الذي أشار له الترمذي رواه بن ابي الدنيا وابن جرير وابن الانباري في المصاحف وابن مردويه عن ابي هريرة. . . اهـ فانتفت علة الانقطاع بطريق ابي هريرة.

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قرأ رسول الله ﷺ **«هل أتى على الإنسان حين من الدهر... حتى ختمها**. ثم قال: إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون: أطّت[3] السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلّا ملك واضع جبهته لله ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات[1] تجأرون[2] إلى الله ولوددت[3] أني شجرة تعضد». رواه البخاري[4] باختصار.

ومعنى الحديث: لو أنكم علمتم ما أعلمه من عظمة الله عز وجلّ، وانتقامه ممن يعصيه، لطال بكاؤكم وحزنكم وخوفكم مما ينتظركم، ولما ضحكتم أصلاً، فالقليل هنا بمعنى المعدوم، وهو مفهوم من السياق.

وروت السيدة عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان إذا تغيّر الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج، كل ذلك خوفاً من عذاب الله». متفق عليه[5].

وروى عبد الله بن الشخير: أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل في

---

(٣) أطّتْ: هو صوت الأقتاب ـ أي صوتت.

(١) الصُعُدات: ـ بضمتين.. أي الطرق ـ وقيل المراد هنا: الصحارى.

(٢) تجأرون: ـ تتضرعون إليه بالدعاء ليدفع عنكم البلاء.

(٣) لوددت: ـ اللام هنا جواب قسم محذوف: أي والله لوددت.

(٤) صحيح: ـ ولكن لم يخرج البخاري من الحديث المذكور سوى قوله «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» في الرقاق (١١/٣١٩) وغيره.
وهذا اللفظ عند الترمذي في الزهد (٦/٦٠١) وقال: حسن غريب، وكذا رواه الحاكم موقوفاً ومرفوعاً في المستدرك: فالمرفوع في التفسير (٢/٥١٠) وصححه ووافقه الذهبي، وقال المناوي: «اسناده حسن أو صحيح» اهـ. أما الموقوف ففي «كتاب الأهوال» على أبي ذر (٤/٥٧٩) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. أما قوله «لوددت أني كنت شجرة تعضد» فهو من كلام أبي ذر موقوفاً عليه عند الترمذي أيضاً.

(٥) البخاري في بدء الخلق (٦/٣٠٠)، ومسلم في الاستسقاء (٦/١٩٦).

الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المِرجَل» رواه النسائي[1] وأبو داوود والترمذي.

ومن تأمل أحوال الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، ومن بعدَهم من الصالحين من سلف هذه الأمة؛ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعاً جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن.

فهذا الصديق (رضي الله عنه) يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قرأ سورة الطور حتى بلغ «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ» بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه، وقال لابنه وهو يموت: «ويحك ضع خدي على الأرض عساه يرحمني ثم قال: ويلَ أمي إن لم يغفر لي ـ ثلاثاً ـ ثم قضى، وكان يمر بالآية في ورده بالليل تخيفه فيبقى في البيت أياماً يعاد يحسبونه مريضاً، وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء.

وقال له ابن عباس: «مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل»، فقال: «وددت أن أنجو لا أجر ولا وزر».

وهذا عثمان ابن عفّان (رضي الله عنه) كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته، قال لو أنني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما أصير لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

---

(١) صحيح: ـ النسائي في السهو (٣/١٣)، وأبو داود في الصلاة (٣/١٧٢) وسكت عليه. والترمذي في الشمائل ص (٣٣٧) قال الحافظ في الفتح (٢/٢٠٦): اسناده قوي، وأحمد في مسنده (٤/٢٥) والفتح الرباني (٤/١١١). وصححه ابن حبا باب البكاء في الصلاة (ص ١٣٩) موارد.

وهذا أبو الـدرداء[1] (رضي الله عنه) كـان يقول: «لـو تعلمون مـا أنتم لاقون بعد الموت؛ ما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شـربتم شراباً على شهوة أبداً، ولا دخلتم بيتاً تستظلون بـه، ولخرجتم إلى الصعيـد تضربـون صدوركم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل».

وكان ابن عباس (رضي الله عنهما) أسفل عينيه مثل الشراك[2] البالي من كثرة الدموع.

وقال علي ـ كرم الله وجهه ـ وقد سلم من صلاة الفجـر، وقد عـلاه كآبة وهو يقلب يده؛ لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر اليوم شيئـاً يشبههم، لقـد كانـوا يصبحون شعثـاً صفراً غبـراً بين أعينهم أمثـال ركب المعزي[3]؛ قد باتوا سجّداً وقياماً يتلون كتاب الله، يراوحون بـين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا، ذكروا الله تمادو كما يميد الشجر في يـوم الريـح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأني بالقوم بـاتوا غـافلين. ثم قام فما رؤ ى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم.

وقال موسى بن مسعـود: «كنا إذا جلسنـا إلى سفيان كـأن النار قـد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه».

ووصف أحدهم الحسن فقال: «كـان إذا أقبل فكـأنما أقبـل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بقطع رقبته، وإذا ذكرت النـار فكأنها لم تخلق إلاّ له».

---

(١) ضعيف: ـ ليس موقوفاً على أبي الدرداء بل رواه ابن عساكر عنه مرفـوعاً كـذا في الجامـع الصغير وضعفه السيوطي (٣/٣١٨) في الجامـع الصغير. وروي الحـاكم نحوه عن ابي ذر موقوفاً (٤/٥٧٩). وصححه على شرطهما وتعصبه الذهبي بأن فيـه انقطاعـاً وأحد رواتـه رافضي لم يخرجا له.

(٢) الشراك: ـ سير النعل على ظهر القدم.

(٣) الركب: ـ جمع ركبه وهي: موصل أسفل الفخذ بأعلى الساق.

المِعْزى: ـ بكسر الميم وسكون العين المهملة هي المعز ـ وأحدها ماعز.

وروى[1] أن زرارة بن أبي أوفى صلّى بالناس الفجر بسورة المدثر، فلمّا قرأ: قوله[2] تبارك وتعالى: «فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذٍ يوم عسير». أخذته شهقة فمات.

وروي[3] عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا؛ فوالذي نفسي بيده: لو يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه».

(١) أنظر الذهبي في العبر (١/١٠٩).

(٢) سورة المدثر الآيتان (٨، ٩).

(٣) صحيح: ـ رواه الحاكم في الأهوال (٤/٥٧٨) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي بلفظ: «ابكوا فإن لم تجدوا بكاءاً فتباكوا ـ لو تعلمون العلم لصلّى أحدكم حتى ينكسر ظهره ولبكى حتى ينقطع صوته».

الـدنيـا

إعلم أن الذم الوارد في الكتاب والسنة ليس راجعاً إلى زمانها الـذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإن الله عز وجل جعلهما خلفـة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً.

وورد في الأثر «إن هذا الليـل والنهار خـزانتان فـانظروا مـا تصنعون فيهما». وقال مجاهد: «ما من يوم إلّا يقـول: ابن آدم: قد دخلت، عليـك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم فانظر ماذا تعمل فيّ، فإذا انقضى طـوى، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يقضيه يوم القيامة».

وأنشد بعضهم: -

إنمـا الدنيـا إلى الجنة والنـار طريقُ　　　والليالي متجر الإنسان والأيام سوقُ

فالوقت هو رأس مال العبد، صح[١] عن رسـول الله ﷺ أنه قـال: «من قـال: سبحان الله وبحمـده غرست لـه نخلة في الجنـة». فـانـظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل.

وكان أحد الصالحين إذا أثقـل الناس في الجلوس عنـده يقول: «أمـا تريدون أن تقوموا، إن ملَك الشمس بجرها لا يفتر».

---

(١) صحيح: - مرّ ذِكره (ص ٣١) وهو عند الترمذي وقال: حسن غريب صحيح.

وقال رجل لأحد العلماء: «قف أكلمك، قال: أوقف الشمس».

وكذلك ليس ذم الدنيا راجعاً إلى مكان الدنيا وهو الأرض، وما أودع فيها من جبال وبحار وأنهار ومعادن، فإن ذلك كله من نعم الله على عباده لما لهم فيها من المنافع، والاعتبار، والإستدلال على وحدانية الصانع سبحانه وقدرته وعظمته؛ . . وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا، لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته، كما قال عز وجلّ: [1]

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾.

وانقسم بنو آدم في الدنيا إلى قسمين: أحدهما: أنكر أن للعباد داراً بعد الدنيا للثواب والعقاب وهؤلاء هم الذين قال الله[2] فيهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

وهؤلاء همّهم التمتع في الدنيا واغتنام لذاتها قبل الموت كما قال تعالى: [3]

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾.

والقسم الثاني: ـ مَن يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب، وهم المنتسبون إلى المرسلين؛ وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

---

(١) سورة الحديد آية (٢٠).

(٢) سورة يونس الآيتان (٧، ٨).

(٣) سورة محمد آية (١٢).

والظالم لنفسه: هم الأكثرون، وأكثرهم واقف مع زهرة الدنيا وزينتها، فأخذها من غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارت الدنيا أكبر همّه بها يرضى، وبها يغضب ولها يوالي، وعليها يعادي؛ وهؤلاء أهل اللعب واللهو والزينة، وإن كانوا يؤمنون بالآخرة إيماناً مجملاً فهم لم يعرفوا المقصود من الدنيا، ولا أنها منزلة يتزود فيها بعدها.

والمقتصد: من أخذ الدنيا من وجوهها المباحة، وأدى واجبها، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب يتوسع به في التمتع بشهوات الدنيا، وهؤلاء لا عقاب عليهم في ذلك إلاّ أنه ينقص درجاتهم، كما قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «لولا أن تنقص من جناتي لخالفتكم في لين عيشكم ولكن سمعت الله عيّر قوماً فقال: [1]

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾

وأما السابق بالخيرات بإذن الله: فهم الذين فهموا المراد من الدنيا وعملوا بمقتضى ذلك، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده في الدار ليبلوهم أيهم أحسن عملاً كما قال تعالى: [2]

﴿وَإِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾.

يعني أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة، ثم قال تعالى: [3]

﴿ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾.

فاكتفى السابقون منها بما يكف المسافر من الزاد، كما قال النبي[4]

---

(١) سورة الأحقاف آية (٢٠).

(٢) سورة الكهف آية (٧).

(٣) الكهف آية (٨).

(٤) صحيح: ـ الترمذي في الزهد (٧/٤٨) واللفظ له من حديث عبد الله وقال: هذا حديث صحيح، وكذا رواه الحاكم في الرقاق (٤/٣١٠) من حديث عبد الله بن مسعود ومن

ﷺ: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلّا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها».

ووصى[1] ابنَ عمر (رضي الله عنهما) ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

ومتى نوى من تناول شهواته المباحة التقوي على طاعة الله كانت شهواته له طاعة يثاب عليها، كما قال معاذ[2] رضي الله عنه: «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي».

قال سعيد بن جبير: «متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور ولكن متاع بلاغ إلى ما هو خير منه».

وقال يحيى بن معاذ: «كيف لا أحب دنيا قدر لي فيها قوت أكتسب بها حياة؛ أدرك بها طاعة؛ أنال بها الجنة».

وسئل أبو صفوان الرعيني: «ما هي الدنيا التي ذمّها الله في القرآن والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟، فقال: «كل ما أصبت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس منها».

وقال الحسن: «نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن؛ وذلك أنه عمل قليلاً وأخذ زاده منها للجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه ضيع لياليه وكان زاده منها إلى النار».

حديث عمر (رضي الله عنهما) (٤/٣٠٩) وصحح الحاكم حديث عمر على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(١) صحيح: مرّ (ص ١٤) وهو صحيح.

(٢) وهو ثابت في صحيح مسلم (١٢/٢٠٧) في كتاب الإمارة من قوله معاذ موقوفاً عليه في حديث طويل وفي آخره قوله «أما أنا فأنام وأقوم وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي».

وفي المسند[1] وصحيح بن حبان عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «من أحبّ دنياه أضر بآخرتـه، ومن أحب آخرتـه أضر بـدنياه، فـآثروا مـا يبقى على ما يفنى.

قال عون بن عبد الله: «الدنيـا والآخرة في القلب ككفتي الميـزان ما ترجح إحداهما تخف الأخرى».

وقـال وهب: «إنما الـدنيا والآخـرة كـرجـل لـه امـرأتـان إذا أرضى إحداهما أسخط الأخرى». وقال أبو الدرداء: «لئن حلفتم لي على رجل أنه أزهدكم لأحلفن لكم أنه خيركم».

وقال[2] رجل للتابعين: «لأنتم أكـثر عملاً من أصحـاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيراً منكم؛ كانوا أزهد في الدنيا».

---

(١) ضعيف: المسنـد (٤/٤١٢). والحـاكم في الـرقـاق (٤/٣٠٨) وصححـه عـلى شـرط الشيخين، وردّه الذهبي بأن فيه انقطاع. وابن حبان في صحيحه (٦١٢ موارد) وهو من رواية المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبي موسى الأشعري وقـال المنذري في التـرغيب (٤/١٠٣): المطلب لم يسمع من أبي موسى.

(٢) القائل هـو: عبد الله بن مسعـود. أخرج أبـو نعيم في الحلية (١/١٣٦) عن عبـد الله بن مسعود قال: أنتم أكثر صيامـاً وأكثر صـلاة وأكثر اجتهـاداً من أصحاب رسـول الله ﷺ وهم كانوا خيراً منكم. قالوا لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هم كانوا أزهد في الدنيـا وأرغب في الآخرة.

أضرار حب الدنيا

حدث الإمام أحمد عن سفيان قال: كان عيسى ابن مريم يقول: «حبّ الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيها داء كثير، قالوا وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء، قالوا: فإن سلم؟؟ قال يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجلّ»[1].

فحب الدنيا هو الذي عمّر النار بأهلها، والزهد في الدنيا هو الذي عمّر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بالخمر، فصاحبه لا يفيق إلاّ في ظلمة اللحد، قال يحيى بن معاذ: «الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها فلا يفيق إلاّ في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين». وأقل ما فيها أنه يلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله فهو من الخاسرين، وإذا لهى القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان؛ وصرفه حيث أراد. . ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل الخير.

---

(١) ضعيف: ـ ليس له إسناد معروف كذا في مجموعة الفتاوي (١٨/١٢٣)، وقال في الفتاوي المصرية (٤٨٣): ليس هو حديثاً بل معروف عن جندب ويذكر عن المسيح. اهـ وهو موافق لما ذكر المؤلف حفظه الله. وقال العراقي في تخريج الإحياء: رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلاً (٩/١٧٠٤). وقال في شرح الألفية (١/١٣٣): إما من كلام مالك بن دينار، وإما مروي من كلام عيسى ولا أصل له من حديث النبي ﷺ، إلاّ من مراسيل الحسن البصري ومراسيل الحسن عندهم شبه الريح. اهـ باختصار.

ويقول ابن مسعود (رضي الله عنه): «ما أصبح أحد في الدنيا إلاّ ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة»[٢].

قالوا: ـ وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا، ومفسداً للدين من وجوه:

أحدها: ـ أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله ـ ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقّر الله.

وثانيها: ـ أن الله لعنها، ومقتها، وأبغضها؛ إلاّ ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة، ومقته وغضبه.

وثالثها: ـ أنه إذا أحبها صيّرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكَس الأمر وقلب الحكمة، فها هنا أمران: أحدهما: جعْل الوسيلة غاية، والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الإنتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه: حذو القُذة[١] بالقُذة، قال تعالى: [٢]

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

---

(٢) وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

(١) كأنه يشير إلى ما رواه أحمد والطبراني عن شداد بن أوس مرفوعاً: «شرار هذه الأمة على سنن الذين خلو من أهل الكتاب حذو القذة بالقذة» قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٦١): ورجاله مختلف فيهم اهـ. وللطبراني أيضاً من حديث ابن مسعود مرفوعاً نحوه؛ قال الهيثمي: وفيه من لم أعرفه اهـ المصدر السابق والقُذّة: هي ريش السهم. والحديث يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان كما قال ابن الأثير في النهاية.

(٢) سورة هود الآيتان (١٥، ١٦).

والأحاديث كثيرة، منها حديث أبي هريرة في الثلاثة الـذين هم أول من تسعّر بهم النار: الغازي، والمتصدق، والقـارىء؛ الذين أرادوا بـذلك الدنيا، والنصيب وهو في مسلم[1].

فـانظر محبـة الدنيـا فإذا حـرمت هؤلاء من أجـر، وأفسـدت عليهم عملهم، جعلتهم أول الداخلين إلى النار.

رابعاً: ـ أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعـل ما يعـود عليه نفعـه في الآخرة باشتغاله عنه بمحبوبه. والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبـوبـه عن الإيمـان وشـرائعـه، ومنهم من يشغله حبهـا عن كثـير من الـواجبـات، ومنهم من يشغله عن واجب يعـارض تحصيلهـا ـ وإن قـام بغيره ـ، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الـوقت الذي ينبغي عـلى الـوجه الـذي ينبغي؛ فيفرط في وقتـه وفي حقـوقـه. ومنهم من يشغله عن عبوديةِ قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه؛ فيؤديـه ظاهـراً لا باطنـاً، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيهـا، هذا من أنـدرهم وأقل درجـات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسـانه لـذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسـانه وقلبـه على ربـه، فعشقها ومحبتهـا تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا.

خامساً: ـ أن محبتها تجعلها أكبـر همّ العبد، وقـد روى الترمـذي[2] من حـديث أنس بن مالـك ـ رضي الله عنه ـ قـال: قال رسـول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا

---

(١) مسلم في الجهاد (١٣/٥٠).

(٢) صحيح: الترمذي في الزهد (٦/١٦٥) وسكت عليه، وهذا اللفظ بهذا الإسناد ضعيف، قال المنذري (٤/٨٢): رواه الترمذي عن يزيد الرّقاشي عنه. ويزيد قد وثقـه، ولا بأس به في المتابعات، اهـ وللحديث شاهد عنـد ابن ماجـه بلفظ آخر (٢/١٣٧٥) في الـزهد قال فيه البوصيري: اسناده صحيح رجاله ثقات. اهـ.

وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما قدر له».

سادسها : ـ أن محبها أشد الناس عذاباً بها، وهو معذب في دوره الثلاث : يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد جعل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذاباً في قبره، يعمل الهمّ والحزنُ والغم والحسرة في روحِه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه.

والمقصود: أن محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه. قال[1] تعالى:

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾.

قال بعض السلف: «يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها».

وسابعها : ـ أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق، وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبدِ في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام قوم، أو كظلّ زائل، إن اللبيب بمثلها لا يخدع.

وكان بعض السلف يتمثل هذا البيت :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... إن اغتراراً بظل زائل حمق

---

(١) التوبة آية (٥٥).

قال يونس بن عبد الأعلى: «ما شبهت الدنيا إلاّ كرجل نام فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه».

وأشبه الأشياء بالدنيا: الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه. وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب. وأشبه الأشياء بها: عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبَر، غدّارة بالأزواج، تزينت للخطاب بكل زينة، وسترت كل قبح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره لظاهرها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلاّ فقْد الآخرة، فإننا ضرتان، واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخُطّاب العاجلة، وقالوا: ما على مَن واصل حبيبته مِن جناح، فلما كشف قناعها، وحل أزارها، إذا كلُ آفة وبيلة، فمنهم من طلّق واستراح، ومنهم من اختار المقام؛ فما استتمت ليلة عرسه إلاّ بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق، على غير القلاح، فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح، وسروا ليلهم، فلم يحمد القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها، فما رجع أحد منهم إلاّ وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها، فأسلمتهم للذُبّاح.

التوبة

التوبة من الذنوب بالرجوع إلى ستّار العيوب، وعلّام الغيوب، مبدأُ طريق السالكين، ورأسُ مال الفائزين، وأول إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والإجتباء للمقربين.

ومنزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه، ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وقد قال تعالى[1]:

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان، وخيارَ خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم؛ ثم علق الفلاحَ بالتوبة وأتى بكلمة «لعل» إيذاناً بأنكم إذا تبتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلاّ التائبون جعلنا الله منهم، وقال تعالى[1]

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ .

فقسم العباد إلى تائب وظالم وليس ثَم قسم ثالث. وأوقع اسم

---

(١) النور آية (٣١).

(١) الحجرات آية (١١).

الظالم: على من لم يتب ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله وفي الصحيح[٢] عنه ﷺ أنه قال «يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» .

والتوبة هي رجوعُ العبد إلى الله ومفارقتهُ لصراط المغضوب عليهم والضآلين .

وشرائطُ التوبة ثلاثة ـ إذا كان الذنب في حق الله عز وجل ـ وهي : الندم والإقلاع، والعزم على عدم العودة .

فأما الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلاّ به إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه، وفي المسند[٣] «الندمُ توبة» وأما الإقلاعُ فتستحيل التوبةُ مع مباشرة الذنب .

والشرط الثالث هو العزم على عدم العودة ويعتمد أساساً على إخلاص هذا العزم والصدق فيه، وشرط بعض العلماء عدم معاودة الذنب، قال: متى عاد إليه تبيّنا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة . والأكثرون على أن ذلك ليس شرط أما إذا كان الذنب متضمناً لحق آدمي ، فعلى التائب أن يصلح ما أفسد، أو يسترضي مَنْ أخطأ في حقه ، لما ثبت[١] عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال، وعِرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلاّ الحسنات والسيئات» .

فهذا الذنب يتضمن حقان: حقاً لله وحقاً لآدمي ، فالتوبة منه

(٢) مرّ (ص ٣٥).

(٣) صحيح : ـ المسند (١/٣٧٦) من حديث بن مسعود. قال الشيخ شاكر: إسناده صحيح ا هـ. ورواه الحاكم (٤/٢٤٣) وصححه ووافقه الذهبي .

(١) البخاري في المظالم (٥/١٠١) والرقاق (١١/٣٩٥) من حديث أبي هريرة وألفاظهما غير هذا اللفظ .

بتحلل الآدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

وهناك بعض التوبات الخاصة، نذكر منها بعون الله تعالى ما يلي:

إذا كانت المظلمة بقدح في الآدمي بِغيبة، أو بقذف، فهل يُشتَرط إعلامُه؟

مذهبُ أبي حنيفة ومالك اشترطوا الإعلام، واحتجوا بالحديث السابق. والقول الآخر أنه لا يشترط الإعلام، بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب، أو المقذوف في مواضع غيبته، أو قذفه بضد ما ذكره به، ويستغفر له، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، احتج لذلك بأن إعلامه مفسدة مَحْضَة لا تتضمن مصلحة، وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه، فضلاً عن أن يوجبه أو يأمر به.

أما توبة مَن اغتصب مالاً فعليه ردُّ هذا المال إلى أصحابه، فإن تعذر عليه ردُّه لجهله بأصحابه، أو لانقراضهم، أو لغير ذلك فعليه أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها، فإذا كان يومُ استيفاء الحقوق كان لهم الخِيارُ بين أنْ يُجيزوا ما فعل، وتكون أجورها لهم وبين ألاّ يُجيزوا ويأخذوا من حسناته بقدر أحوالهم ويكون ثواب تلك الصدقة له إذ لا يُبطِل الله سبحانه ثوابها.

فقد رُوي أن ابن مسعود رضي الله عنه اشترى من رجل جارية ودخل يزن له الثمن فذهب ربّ الجارية فانتظره حتى يئس من عودته فتصدق بالثمن وقال اللهم هذا عن رب الجارية، فإن رضي فالأجر له وإن أبَى فالأجر لي وله من حسناتي بقدره.

وأما توبة من عارض غيرَه معاوضةً محرَّمة وقبض العِوَض كبائع الخمر والمغنيِّ وشاهد الزور ثم تاب والعوضُ بيده: فقالت طائفة يرده إلى مالكه إذ هو عينُ ماله ولم يقبض بإذن الشارع ولا حصل لربه في

مقابلته نفعٌ مباح، وقالت طائفة ـ بل وهو أصوب القولين ـ: بل توبته بالتصدق به وكيف يرد إلى دافعه مالاً استعان به على معاصي الله وهكذا توبة مَن اختلط مالهُ الحلالُ بالحرام وتعذر عليه تمييزُه أن يتصدق بقدر الحرام ويُطَيّب باقي ماله والله أعلم.

مسألة :ـ إذا تاب العبد من الذنب هل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حَطّه عنها الذنبُ أو لا يرجع إليها ؟

قالت طائفة : يرجع إلى درجته لأن التوبة تَجُبُّ الذنب بالكلية وتُصِيّره كأن لم يكن.

وقالت أخرى: لا يعود إلى درجته وحاله لأنه لم يكن في وقوف، وإنما كان في صعود، فبالذنب صار في هبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :ـ والصحيح أن مِن التائبين مَن لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيراً مما كان قبل الذنب، وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، وهنا مَثَل مضروب:

رجل مسافر سائر على الطريق بطُمأنينة وأمْن فهو يعدو مرة ويمشي أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى فبينما هو كذلك إذ عرض له في سيره ظِلٌّ ظَليل، وماء بارد ومَقيل، وروضة مُزْهِرة، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن فنزل عليها، فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده ومنعه عن السير، فعاين الهلاك وظن أنه منقطع به، وأنه رِزْقُ الوحوش والسِّباع، وأنه قد حِيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحلّ كتافه وقيوده، وقال له اركب الطريق واحذر هذا العدو فإنه على منازل الطريق

لك بالمرصاد، واعلم أنك ما دمتَ حاذراً منه متيقظاً له لا يقدر عليك فإذا غفلت وثب عليك، وأنا متقدمك إلى المنزل وفرط لك فاتبعني على الأثر. فإذا كان هذا السائر كَيّساً فَطِناً لَبِيباً حاضرَ الذِّهْن والعقل استقبل سيره استقبالاً آخر أقوى من الأول، وأتم واشتد حذره وتأهب لهذا العدو، وأعدّ له عدته، فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيراً منه ووصوله إلى المنزل أسرع، وإن غفل عن عدوه، وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد، عاد كما كان، وهو معرض لما تعرض له أولاً، وإن أورثه ذلك توازناً في سيره وفتوراً، وتذكراً لِطيبِ سَقِيله وحُسْنِ ذلك الرَّوْضِ أو عذوبةِ مائهِ لم يَعُد إلى مثل سيره ونقص عمّا كان.

التوبة النصوح

قال الله تعالى(١) :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ .

والنصحُ في التوبة هو تخليصُها من كل غِسن ونقص وفساد. قال الحسن البصري :- هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مُجْمِعاً على أن لا يعود فيه. وقال الكلبي :- «أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويُمسك بالبدن». وقال سعيد بن المسيب :- «توبةً نصوحاً تنصِحون بها أنفسكم».

قال ابنُ القيّم(٢): «النصحُ في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول : تعميم الذنوب واستغراقُها بها بحيث لا تدع ذنباً إلاّ تناولته.

الثاني : إجماع العزم والصدق بكلتيه عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوّم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث : تخليصُها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها

(١) سورة التحريم آية (٨).

(٢) انظر (مدارج السالكين) (١/٣١٠).

ووقوعها لِحَصْن الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه ورياسته أو لحفظ قوته وماله أو استدعاء حَمْد الناس أو الهرب من ذمهم أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجلّ .

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والأوسط يتعلق بذات التائب، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه؛ فنُصْحُ التوبة: الصدقُ فيها والاخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة».

وتوبة العبد إلى الله محفوظة بتوبة من الله عليه قبلَها وتوبةٍ من بعدَها فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة فإنه تاب عليه .

أولاً : إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانياً،

ثانياً : قبولاً وإثابة وذلك لقوله عز وجلّ[2]

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التي جعلتهم تائبين فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم وهذا القَدْرُ من سر اسمَيْه **«الأولُ والآخِر»** فهو المعدّ والممد ومنه السبب والمسبب، والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الأباق وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق وقبول وإمداد .

---

(١) التوبة آية (١١٨).

(٢) ثم قال ابن القيم في المدارج (١/٣١٢).

والتوبة لها مبدأ ومنتهى فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي أمرهم بسلوكه بقوله تعالى[1]

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾.

ونهايتها الرجوع إليه في الميعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب، قال الله عز وجلّ.

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَاباً ﴾.

---

(١) سورة الأنعام آية (١٥٣).

(٢) سورة الفرقان آية (٧١).

أسرار التوبة ولطائفها

اعلم أن العبد العاقل إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى أمور :-

أحدها : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيحدث له ذلك الإعتراف بكونها خطيئة والإقرار على نفسه بالذنب.

الثاني : أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له ذلك خوفاً وخشية تحمله على التوبة .

الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمة منها فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته وحلمه وكرمه وتوجب له عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها البتة. ويعلم ارتباط الخلق والأمر والوعيد بأسمائه وصفاته وأن ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها في الوجود، وهذا المشهد يطلعه على رياض موفقة من المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

منها : أن يعرف العبد عزته في قضائه. وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء وحال بين العبد وقلبه.

ومن معرفة عزته في قضائه أن يعرف أنه مدبَّر مقهور ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلاّ بعصمته ولا توفيق له إلاّ بمعونته فهو ذليل حقير في قبضةِ عزيز حميد ومِن شهود عزته في قضائه أن يشهد أن الكمال والحمد والعزة كلها لله وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ازداد شهوداً لعزة الله وكماله وحده وغناه.

ومنها: أن يعلم بره سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه. ومنها مشاهد حلم الله عز وجل في إمهال راكب الخطيئة ولو شاء لعاجله بالعقوبة فيحدث له معرفة ربه سبحانه باسمه «**الحليم**»

ومنها: معرفة فضل الله في مغفرته فإن المغفرة فضل من الله وإلاّ فلو أخذك بمحض حقه كان عادلاً محموداً وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك فيوجب له ذلك شكراً ومحبة وإنابةً ومعرفةً باسمه «**الغفار**».

ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والإنكسار والإفتقار وهي أربعة مراتب :-

المرتبة الأولى :- ذل الحاجة والفقر، وهذه عامة في جميع الخلق.

المرتبة الثانية :- ذل الطاعة والعبودية، وهو خاص لأهل طاعته.

المرتبة الثالثة :- ذل المحبة فالمحب ذليل بالذات وعلى قدر محبته يكون ذُلّه.

المرتبة الرابعة :- ذل المعصية والجناية وحقيقة ذلك هو الفقر، فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم.

ومنها: أن اسم «**الرّزّاق**» يقتضي مرزوقاً «**والسميع البصير**»

يقتضي مسموعاً ومُبْصَراً كذلك أسماء الغفور العفو التواب يقتضي من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات.

وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول[1]: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم».

ومن أسرارها: ما ورد في الصحيحين[2] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح:ـ اللهم أنت عبدي وأنا ربّك أخطأ من شدة الفرح». وهذا لفظ مسلم.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً وأَسَرَ عدوك وحال بينك وبينه وأنت تعلم أن العدوَّ سيسومه سوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك وأنت أولى به منه وهو غرسك وتربيتك ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد فلم يفاجئك إلاّ وهو على بابك يتملقك ويترضاك ويمرغ خديه على تراب أعتابك فكيف يكون فرحك به وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على ما سواه. هذا ولستَ الذي أوجدته وخلقته وأسبغتَ عليه نعمك والله عز وجلّ هو الذي أوجد عبده وخلقه وأسبغ عليه نعمته وهو يحب أن يتمها عليه.

---

(١) مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٦٥) من حديث أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه).
(٢) البخاري في الدعوات (١١/١٠٢) عن أنس مرة وابن مسعود أخرى، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٦٣) عن أنس (رضي الله عنه).

ورجاؤنا الأخير هو أن لا يفوتكم أن تدعوا لنا بـالصدق والإخـلاص واليقين والعفو والعافية في الدميا والآخرة.

نسأل الله عز وجـلّ أن يجعلنا ممن آخـر دعواهم: أنِ الحمـد لله رب العـالمين سبحـانـك اللهم ربنـا وبحمـدك، أشهـد أن لا إلـه إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

مصادر التحقيق

الأذكار ـ للنووي
البداية والنهاية ـ لابن كثير
بلوغ المرام ـ لابن حجر
تحفة الأحوزي شرح الترمزي للمباركفوري
تحقيق المسند ـ لشاكر
تخريج الأحياء ـ للغزالي
الترغيب والترهيب ـ للمنذري
تلخيص المستدرك ـ للذهبي
تهذيب الأسماء واللغات ـ للنووي
تهذيب التهذيب ـ لابن حجر
الجامع الصغير ـ للسيوطي
جامع العلوم والحكم ـ لابن رجب
جلاء الافهام ـ لابن القسيم
حاشية السندي علي ابن ماجه ـ للسندي
حلية الأولياء ـ لأبي نعيم
روضة العقلاء ـ لابن حبان
رياض الصالحين ـ للنووي

الزوائد ـ للبوصيري

الزواجر ـ للهيثمي

سبل السلام ـ للصفاني

سند أبي داود ـ عون المعبود

سنن الترمذي ـ تحفة الاحوذي

سنن ابن ماجه ـ محمد فؤاد عبد الباقي

سنن النسائي ـ المجتبى

شرح السنن للبغوي

شمائل الترمذي

صحيح البخاري

صحيح ابن حبان ـ موارد الظمآن

صحيح مسلم شرح للنووي

صيد الخاطر لابن الجوزي

العبر للذهبي

عون المعبود ـ لشمس الحق آبادي

الفتاوي المصرية ـ لابن تيمية (مختصر)

فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ لابن حجر

الفتح الرباني ترتيب المسند ـ للساعاتي

فتح المبين شرح الاربعين ـ للهيثمي

فضائل القرآن ـ للنسائي

فيض القدير ـ للمناوي

لسان العرب ـ لابن منظور

لسان الميزان ـ لابن حجر

المجتبى ـ شرح النسائي للسيوطي

مجمع الزوائد ـ للهيثمي

مجموعة الفتاوي ـ لابن تيمية
المستدرك ـ للحاكم
المسند ـ لاحمد بن حنبل
المعجم الوسيط
المنهاج شرح صيح مسلم ـ صحيح مسلم
موارد الظمآن ـ صحيح ابن حبان
ميزان الاعتدال ـ للذهبي
النهاية ـ لابن الأثير
نيل الأوطار ـ للشوكاني



الأحاديث والآثار

« الموقوفات »

« المقطوع »

الفهرس